وطن سكسي

زهير أبو سعد

زهير أبو سعد

عنوان الكتاب: وطن سكسي

اسم المؤلف : زهير أبو سعد

تصميم الغلاف: خالد الفرجاني

إعداد ومراجعة: منى سويد

الطبعة الأولى 2017 م

© جميع حقوق الطبع والنشر

محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم التسجيل:7334 /2017

Literar-Mechana

طبع في مطبعة

Expressprint

إِهدَاءٌ..

إِلىَ الوَطَنِ..

الذي لمْ يَفهَمْهُ أَحَد..

إِلىَ الحَاقِدِينَ و الحَاسِدِين..

إِلىَ الفاشِلِينَ و الكاذِبِينَ..

إِلىَ قُطَّاعِ طُرُقِ الطَامِحِينَ و النَاجِحِينَ..

إِلىَ الوَطَنِ الأُم سُورِيا ، و الوَطَنِ الأب النسا..

إِلى شَهِيدِيِّ الوَطن أبي و أُمي..

إِلى عَاصِمَةِ الإبدَاعِ ، و مَدِينَةِ العَالِقَةِ و القادة : فيينا..

وَطن..

مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَعرِفَ عَنِ الوَطن ؟

لستُ مِن رُوادِ المراوغةِ، وخصوصاً أمَامَ الأسئِلةِ المُتعلِقةِ بالوَطَن ، و حَتى يكونَ قَلَمِي مُحَايِداً عَنْ قَضَايَا لَيسَ لَهَا علاقةٌ بِأي شَيءٍ يُفِيدُ الوَطنَ فَأنا لا أنتَمِي لأحد ، و حَتى أكُونَ معكَ في مُنتَهى الصَرَاحَةِ أنَا لَستُ مُعَارِضاً لأحَد و لا مَعَ أحَد و لا مَعَ نَفسِي ، دَعنِي أَقولُ لَكَ بأنَنِي وَطنِيٌ بِلا قَضِيةٍ ، و هَلْ تَعتَقِدُ بِأنَ الذِينَ يُقَاتِلونَ على أيِ وَطن في نَظَرِكَ هُم حَقاً يُقَاتِلونَ مِن أجلِ الوَطنِ و حِسِبِ الجُغرَافِي !؟ ،

إنَّ هَذِهِ المَسَاحَةَ الحُدُودِيةَ التِي تَختَلِفُ تَضَارِبسِياً و مَنَاخِياً و اقتِصَادِياً و أمْنِياً و سِياسِياً ، تَحُدُهَا أفكَارٌ و

مُعتقَدَاتٌ و عَادَات مَصدَرُهَا فِكْرة ، و مِن أجلِ هَذِهِ الفِكرةِ التي تبدأُ بِكَلِمَةٍ مُكوَنَةٍ مِنْ أحرُفٍ و لُغَاتٍ عِدةٍ شكَّلَهَا الإنسَان، و لَكِنَ المَضمُونَ وَاحد ، رَاحَ بَنو البَشَرِ يَبنُونَ عَلِيهَا أفكَارَهُمْ و اعتِقَادَاتهم ، و أشبَعُوا مَن حَولَهُم بِقنَاعَاتٍ تَحُضُ على الحُرِيةِ و القِيمِ و حِفظِ الحُقُوقِ و صَونِ الأعراضِ و هَلمُ جَراً فيمَا يَصُبُ في مَصلَحَةِ الإنسَان ، و مِن أجلِ هَذِهِ القَنَاعَاتِ و الإعتِقادَاتِ رَسَموا خِطَطَ الوَلاءِ و البَراءِ و جَيَّشوا مِن أجلِهَا الجُيوشَ و صَنعَوا مِن أجَلِ عَينَيهَا الأسلِحةَ بِدَايتُهَا سَيفٌ و نِهَايتُهَا قُنبلةٌ نَوَوية ، و انقَسَمَ بنو البَشَرِ كُلٌ علىَ حَسَبِ قنَاعَاتِهِ و أهوائِهِ ، و كلُ

سُؤالٍ تَجِدُ أمَامَهُ خيَارانِ لِتُثبِتَ للسَائِل مَا وِجهتُكَ الاستفزَازِية .. إن كُنتَ عَربيًا يَسألونَكَ:

أنتَ مُسلمٌ أم مَسِيحِي .. أنتَ كَاثُولِيكِيٌ أم أرثوذُكسِي .. أنتَ سُنيٌ أم شِيعِي .. أنتَ دُرزِيٌ أم علَوي .. أنتَ قِبطِيٌ أم مَارونِي ؟؟

هكَذا و مِن غَيرِ أيَةِ مُقدِمَاتٍ يُرِيد أن يَعرفَ..

الفُضُولُ يَسري بِدِمَائِنَا مَسرى الشَياطِين في عُرُوقِنَا ، و جَوابُكَ يُحَدِدُ تَصنِيفَكَ في عَقلِ السَائِلِ ، إمَا أن يُنزِلُكَ منَازِلَ المُلُوكِ و إمَا أن يَجعلكَ في حِقدِ نَظرَاتِهِ و إمَا أن تَسعَ مِنهُ سِيمفونِيةَ نِفَاقَهِ و بِأنَّهُ الشَخصُ المُعتَدل و المُتَحضِر و الذِي يَفهَمُ لُغَةَ الغيرِ و يَحترمُ جَمِيعَ الآرَاءِ و قِس على كَذبِهِ..

و إن كُنتَ قَومِياً ذو آراءٍ سِياسِيةٍ أو مَنطِقيةٍ ايديولُوجِية بينط أخُونَا سَائِلاً:

أنتَ مَع سِياسةِ الدِين أم سِياسَةِ العَلمَنَة ! .. أنتَ قَومِيتُكَ طَائِفِية أم قَبَلِية ! . أنتَ مَع أو ضِد.. !

و إن كان جدك الرسول إخلص منه إن كنت رجال . أنتَ فَقط أجبهُ بِكَذا أوكَذا..

و بناءً على إجَابَتِكَ السَلبِية أو الإجَابِية سَيُحَلِلُ شَخصِتَكَ و سُتَقِيدُ بَحبلِ لِسانِهِ و إمَا أن تَكونَ مؤُمِناً و إمَا أن تَكون كَافِراً ، حَتى لا أظلِمَ العَربَ فإنَ التَكفِير سَائِدٌ بَين الرَاعِي و الرَعِية و بَينَ العَالِمِ و الجَاهِلِ، فَقَط في الوَطن العَربي أسهل مِهنةٍ هِيَ التَكفِيرُ و الإخَراجُ

مِن المِلةِ ، هذَا يَعنِي بِأنَّ وِجهَاتِ النظَرِ الأُخرى مَرفُوضَةٌ و لا تَقبلُ المُفَاوضَة..

و لو دَقَقتَ مَعي في كُلِ هَذِهِ التفَاصِيل المُخِيفَةِ التي مِن أجلِهَا سُحِبتِ السُيوفُ و تَشَابكتِ الرِمَاحُ و سُفِكَتِ الدِمَاءُ و تَطَايَرتِ الجَمَاجِمُ و رُمِّلَتِ النِساءُ و يُتِّمَ الصِغَارُ، سَوفَ تَجِدُ بِأنَ سَبَبهَا فِكرةٌ قَذِرة..

فِكرةٌ ذَاتُ أبعَادٍ مَادِيةٍ مَبنِيةٍ على المَصالِحِ الشَخصِيةِ ، فِكرة تُعَادِلُ ألفَ ألفَ كَفرة ، و بِدَايَةُ أيةِ فِكرة أسَاسُهَا خَللٌ لَحظَهُ صَاحِبُهَا بِمَا صَنعهُ بَنِي البَشَر مِن هفَواتٍ لا تَنطَبِقُ في دِمَاغِ المُفَكر ، و مِن أجلِ أن يَنفُثَ هَذِهِ الفِكرة و يَزِيدَ مَبِيعهَا في أسواقِ و أهواءِ بَنِي العَرب ، يسنِدُ فِكرَتَهُ على جُدرَانِ الحَقِ ، و أنَّ مَا

قَدمَهُ مِن اقتِرَاحَاتٍ و تَحلِيلاتٍ للوَقَائِعِ و النتَائِجِ مُستنبَطٌ مِنَ الظُلمِ الذِي لمْ يَأخُذ بِهِ حَقَّ فِكرَتِهِ ، فَالوَطن مَوقِعٌ و لَيسَ فِكرة ، هوَ المكَانُ الوَحِيدُ الذِي تُدَافِعُ بِهِ عَن أفكَارِكَ لا عَن وَطنِكَ ، الأوطَانُ التي تَتَقَدمُ و تَزدَهِرُ بِالحَضَارة و البُنيان كَانت أفكَارَ مَن خَرَجَ مِن رَحِمِهَا رُبمَا بِنَائُهُ، و الأوطَانُ التِي كُلمَا تَقدَمَت بِشِعَارَاتٍ خَالِيةٍ مِنَ الأفعَالِ، أي الأفعَال المَلمُوسَة لا المَحسوسة إن دَقَقْتَ بِالنظَرِ إلى تَارِيخِهَا و مَشَاعِرِ أهلِهَا لَوَجدتَ بِأنَ أفكَارَهَا مَبنِيةٌ على النِفَاقِ، الفَارِقُ الوَحِيد و المِقيَاسُ الفَرِيد الذِي تَحكُمُ بِهِ بَينَ الأوطَانِ وَحدَةُ مِقيَاسِ الحَضَارة ، فَكُلمَا وَجدَتَ بَلَداً قَد تفوقَ على بَلدٍ آخَرَ بِأفكَارِهِ الفعَّالةِ التي تَصبُ

بِمَصلَحةِ الوَطنِ و المُواطن و تَرفَعُ الجَمِيعَ إلى الراحَةِ و السلَام فَتِلكَ أفكَارٌ في عَينِي القَاصِرة تَستَحِقُ أن تَتَبنَاهَا و تُعطِيهَا حَقَّهَا في الإنصَاف..

العَلاقَةُ بَينَ الوَطنِ و الفِكرة ، هي القَاسمُ المُشتَرَك بَينَ مَصلَحةِ البَشَرِ مَع الأرض ، و للأسَفِ الشَدِيد أن الإنصَاف عِندَ مُتَبَنِيي الأفكَار في الوَطن العَرَبي هو حَالةٌ مَفقُودَة ، و الأسبَابُ وَاضِحَةٌ و صَرِيحة ، لأنَ 80٪ مِنَ الأفكَارِ التِي نَتَوَارَثُهَا دَمَوِيةٌ بِعَقَائِدِنَا و عَادَاتِنَا و تَقَالِيدِنَا ، و التَغِييرُ و التَعبِيرُ في حَيثِيَاتِهَا أمرٌ في غَايةِ الخُطُورة لرُبمَا تَفقِدُ فِيهَا وَطَنَكَ أو عُنُقَكَ أو أهلَكَ ، فَمهمَا نَثَرتَ حُسنُ نَوايَاك و مَهما رَقَّعتَ مَاضِيك فَأنتَ سَقَطتَ مِن حُضنِ الوَطن و طَبعاً هَذِهِ كِذبَةٌ، و سَقَطتَ

مِن أعيُنِ أبنَاءِ الوَطن لأنَ أفكارَكَ لمْ تُعجب أفكَارَهم أو خُرَافَاتِهم ، إنَّ قانونَ الحَسَنَاتِ تُذهبُ السيئَات هو قانونٌ مَوجُودٌ بَينَ دُفُوفِ التُراثِ العَقدِي، أمَا عَمَلِياً فأنتَ دَائِماً مُتَهمٌ بِفكرةٍ مُخَالِفَةٍ لِأفكَارِ المُخدَّرينَ بِالأوهَامِ و الخُرَافَات، عِندمَا تَطرحُ أيَةَ فِكرة فَاعلم قَبلَ أن تُدلِي بِحربِكَ بِأنَّ حَربَهُم لَكَ بِالمِرصَادِ، و أنَّ لا دُرُوعَ لَكَ ، و أنَّ سِيوفَ ألسِنَتِهم سَتُقَطِعُكَ إرَباً إرَباً ، و أنَكَ مَهمَا تَرَاجعَتَ فَأنتَ الخَاسِر، و مَهمَا تَقدمَتَ كَذلِكَ أنتَ الخَاسِر، لَيسَ لأنَكَ صَاحبَ رِسالةٍ تَبشِيرِيةٍ أو لِأنَكَ بَينَ قِدِيسِينَ و أولِياء ، فَخُرافَةُ نَقَاءِ القُلوبْ مَحضُ كِذبة ، بَل لأنَكَ بَينَ أُناسٍ نَشأَت عَقائِدَهُم و

عَادَاتِهم و تَقَالِيدِهم في أرَحَامِ أُمهَاتِهم قَبلَ أن تَصِلَ النُطفَةُ المَنَوِيةُ إلى البُويضَة..

على أرضِ الوَطَن أنتَ طَائِرٌ بِلا جَنَاحين ، المَنُوع فِيهِ مَرغُوب ، و المَرغُوب فيهِ مُشتَهى..

أي تشتهي كُلَّ شَيءٍ و أمَامُكَ مَا تَشتَهِيه..

الأرض .. هَذَا الكَائِنُ و المكَانُ المَوجُودُ فِيهِ مَا يُسمَى : حَياة ، تَكَّونَ مُنذُ 54 ، 4 مِليارِ سَنة ، و قَد ظَهَرت على سَطحِهِ الحَياة في المِليَار سَنةٍ الأخَيرة ، و حَسَب دِراسَاتٍ وَصلَ إليهَا عُلمَاءُ الخُرافَاتِ و المُنهمِكُونَ في تَحَالِيلِ الأوهَام ، كُلُ وَاحِدٍ أدلى بِمَا في وَهْمِهِ مِنْ مُستندَاتٍ يُقَالُ لَهَا نَصُوصٌ مُقَدَسة تَحدَّثَت عَنهَا الآلِهة مُنذُ نُشُوءِ بِدَايةِ أيةِ فِكرة..

السَخَافَةُ لَيسَت بِالقَضَايَا الجَدَلِيةِ أو بِدَايةِ أو نِهَايةِ أيَةِ قَضِيةٍ تَمَ اكتِشَافُهَا ، و إنمَا في الحقيقةِ أنَّ الأَمْرَ الذِي اُكتُشِفَ حَدِيثاً هُوَ في الأصلِ مَوجود و لم يأتِي بِشَيءٍ جَدِيد ، كُلُ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ لَفتُ الإنتِباهِ إلِيه و تَلمِيعِ مَاهِيتِهِ..

الشَجَاعَةُ يا عَزِيزِي لَيسَت في إبرَازِ الأفكَارِ و تَطوِيق البَشَرِ بِهَا و جَعلِهَا حَدِيداً صَلباً في قُلوبِ البَشَرِ و أن تَأمُرَ الفَاشِلينَ و المَسَاكِينَ بِالتَدَيُّنِ بِهَا ، الشَجَاعَةُ لَيسَت اكتِشَافاً بل هِيَ تَطُورٌ على مَقَاسِ العَقلِ لا حُدُودَ النَقلِ ، فَالأفكَارُ المَنقُولةُ بِضَاعةٌ مُستَرجَعةٌ لِإنَّهَا تَمَّ تَصدِيقُهَا بِالقَلبِ خَارِجَ نِطَاقَ العَقلِ أمَا الأفكَارُ الثَابِتَةُ تِلكَ هِيَ وَحدَهَا مَن كَانَ لَهَا في مَدَارِكِ العَقلِ و مَخَارِجِهِ

النَصِيبُ الأكبر ، خُذ مِثَالاً عَن وَطَنِنَا المُثِير أو بِعبارةٍ أكثَرَ إثَارة : وَطَنُنَا السكْسي ، تِلكَ البُقعَةُ الثَابِتةُ بِتُرابِهَا المُتَغِيرَةُ التَسِيات التي أطَلقنَا عَلَيهَا : الوَطنَ العَرِبي..

سَيأتِي يَومٌ يَموتُ مَن فِيهَا ، و تَضمحِلُ الأفكَارُ فِيهَا ، و تَفنَى المُسَمَيات ، و يَبقَى الوَطنُ الذِي لم يُفكِر بِهِ أحد..

وَطنٌ لا نَبحثُ عَن مَصالِحِهِ الحَضَارِية، اِعلمُوا بِأَنَّهُ سيَكونُ مَقبَرَةً جَمَاعِيةً حَضَارِيةً لَنَا و لأفكَارِنَا التي تَخدِمُ شَهواتِنا و جِيوبَنَا الشَخْصيِّة ، الوَطنُ ثابتٌ و الكُلُ إلى زَوَال..

المَاضِي ،

الشَاعَة الوَحِيدة لإحصاءِ الجَاجم و الأرواح..

فَمِنَ المؤكَدِ بِأنَ الإنسَانَ لَهُ حَياةٌ طَبيعِيةٌ مُحدَدَة على هذَا الكوكَب، يَخرجُ مِن ذَاتِ المَنفَذِ الذِي يَعبرُ مِنهُ البَول، و لا أحَدَ على هَذهِ البَسِيطةِ نجا مِن هَذِهِ الجَرِيمَةِ ، إلا مَن أتَانَا هَرولَةً عَبرَ عَمَلِيةٍ قَيصَرِية..

فَدَعنِي أُهَنِئُكَ بأن أقُول لَكَ:

حَمداً للهِ على سَلامتِكَ .. أتمنَى لَكَ إقَامَةً سَعِيدةً، و لا أظُنُ ذَلِكَ ، طَبعاً في الوَطنِ العَرَبِي خَاصَةً، و على كوكَب الأرض عَامَةً..

حَسَناً ، أنتَ كَإنسَانٍ تَشرفت بِكَ الإنسَانِية كَنَزِيجٍ مِنَ الحَاضِرِ الآنِي و الحَاضِرِ المُخَيرِ و الحَاضِرِ

المُسَيرِ ، وكذلِكَ أنتَ خَليطٌ في آنِيةِ الحَياة مِن مَاضٍ و مُستقبَل ، وكونَكَ قَطعَت شَوطاً مِنَ السِنِين ، أو لَعَلَّ السِنِينَ قَطعت بِكَ تَقدُماً إلى المَجهُول، أو بِعبارَةٍ أدق قَطَّعتكَ إرَباً ، فَهنيئاً لَنَا ولكَ بِأنكَ أضحَيتَ رَقماً قَد طَواهُ المَاضِي ، ولَكِن لا زِلتَ على قَيد الحَاضِر حَتى تُغَيبَ في التُراب أو تُحرَقَ في النَارِ أو تَاكُلُكَ الأسماكُ و الحِيتَان أو تَنهَشُكَ الطُيور ، فَكُل عَقِيدةٍ لَهَا طُقُوسُهَا الخَاصَةُ بِإنهَاءِ عَلاقَةِ مَن فَارَقتهُ الحَياة ، طَبَعاً في هَذِهِ الحَالة سيكُونُ سِجلُكَ قَد سُحِبَ مِنَ أيِّ بَصيصِ نُورٍ مِن سِجلاتِ الحَاضِر ، لأنَكَ بِاختِصارٍ لم تَعُد مَوجُوداً ، فَفِي أعيُنِنَا حَاضِرُكَ قَد انتهَى عِندَ تَوقُفِ كُلِ شَيءٍ فِيكَ..

رُبمَا سَنُوارِيكَ في لَحدِكَ و أنتَ لَا قِيمةَ لَكَ لا فِي عُيونِنَا و لا في أرصِدَتِنَا ، و لَكن إن كانَ قَبرُكَ في الوَطنِ العَربي و غيَّبكَ المَاضِي أكثرَ مِن ألفِ سَنَةٍ فيا مَرحَباً بِكَ و بِعِظامِكَ..

و الله إنَكَ ثَروةٌ كَبيرة..

سأَختَارُ لَكَ بَلَداً في الوَطنِ العَربي يُلقِبُونَهُ بِأُمِ الدُنيا: الجَمهُورية العَربية المِصرية .. مَثَلاً

صَدقنِي يا خَلِيلَ المَحَاضِرِ ، و قَرِيباً ستَكون في خَبرِ كَان، بِأنَّ عِظَامَ الأموَاتِ و تَوابِيتَهُم و أشيائَهُم و مُقتَنَياتِهم التي لا تملأُ العَينَ في بَلدِ أُمِ الدُنيا ، أغلى بِكَثِيرٍ مِنَ الأحياءِ فيهَا ، و إن أعتَرَضَ أحَدَهُم طَرِيقَكَ أو

أسكتَكَ فأرسل لَهُ هَذِهِ الرِوايَة كَعُربُونِ إشبَاعٍ و سَدِ أفواهٍ كَاذِبَة..

خُذ هَذَا التَقرِير و لا تَنسَى أن تَلطُمَ على وَجهِكَ ها..

في دَارِ المَزَادِ العَالَمِي الذِي يُبَاعُ فِيهِ الأموَاتُ و تَارِيخَهم و أشيائَهم، في مَدِينَةِ : هونغ كُونغ في الصَين ، بِيعَت خَمسَةُ قِطَعٍ أثَرِيةٍ مِنَ الحَفرِياتِ و الصُخُورِ التي تَرجِعُ لمَاضِي الفَراعِنةِ المِصريين بِحَوالي 5 . 175 ألفَ دُولارٍ أمرِيكِيٍ..

أي أنَنِي لم أتَطَرق للعِظَام بَعد ، و أمَا في بُونهَامز في العَاصِمَةِ البِريطَانِيةِ لُندُن ، عَرَضَت دَارُ المَزادَاتِ

89 تُحفَةً و جُثَّةً مِصرِية حَيثُ أنهَا بِيعت بِمَلايين الدولارَاتِ و على عِينِكَ يَا تَاجر و في وَضح النهَار.

و إن كُنتَ غَربياً و أحبَبتَ أن تُلقِي نَظَرةً أو زِيارةً على جُثَثِ الفَراعِنَةِ المُحنَطَةِ في المِقبَرتَانِ : سِيتِي الأول و نُفرَتاري .. في مِصر فَالمُقَابِلُ غَالِي و الطَلَبُ رَخِيص ، حَدَّدَت وَزَارَةُ الآثَارِ قِيمَةَ التَذكَرةِ بـ200 دُولارٍ أمرِيكِي أي مَا يُعَادِلُ 270 يُورو و للطَلَبَةِ الغَربيين 100 دُولار أو مَا يُعَادِلُهُ 135 يُورو..

هَل رَأيتَ كَم أنتَ غَالِي على جُيوبِنَا مِن بَعدِ مَوتِكَ ، تَخَيَّل بَعدَ 2000 سَنَةٍ أنَكَ تَدخُلَ دُورَ المَزَادَاتِ العَالَمِيةِ و تُبَاعُ و تُشتَرَى بِأموالِ الارُستُقرَاطيينَّ و تُوضَعُ في تَابُوتٍ مُرفَّهٍ لم يَرقُدْ فيهِ

أبوكَ و لا جدُكَ ، تَخَيَّل بِأن أرَاكَ مُسَجى في المَتَاحِفِ العَالمِية ، كمَتحفِ المِتروبوليتان في نِيويورك أو مَتحفِ اللوفَر في بَارِيس أو المَتحفِ الوَطَنِي في الوِلايَاتِ المُتَحدة الأمرِيكِية أو المَتحفِ الوَطَنِي الصِينِي أو المَتحفِ البرِيطَانِي في لُندُن..

يا الله ..كَم ستَكونُ سَعِيداً ، تُحَلُ بِتَابوتٍ زُجَاجِي عَازِلٍ لأيةِ هَزةٍ مُستَقبَلِيةٍ خَلفَ الزُجَاجِ العَازِلِ للرَصَاص يأتِيكَ العَالمُ بِأسرِهِ لِيرَاكَ ، و يُشَاهِدوا مَا فَعلَهُ بِكَ المَاضِي،

و مَن قَال.. !

رُبمَا سَيُدرَجُ اسمُكَ في أبحَاثِ الآثَارِ و تُسمَى بأسمَاءٍ كُنتَ تُحبُهَا في حَاضِرِكَ ، و يَتَسَارَعُ إلِيكَ عُلَمَاءُ

العَالمِ لِدراستِكَ عَن كَثَب و تَدريسِكَ لِمَن شَدَّهُ الفُضُولُ ليَكحَلَ عَينَاهُ بِجُثمَانِكَ .. أيُ ضَربٍ مِنَ الجُنُونِ هَذَا .. ؟

تَخَيَّل يَا صَدِيقِي بِأن يَبلُغَ سِعرُكَ في عيونِ المُرفَهِينَ أرقَاماً لمْ يكُنْ في جَيبِ حَاضِرِكَ فِلساً مِنهَا! ، فَالإثَارَةُ التِي كُنتُ أقصِدُهَا هُنَا لَيست في المَاضِي .. بَل في الوَاقِع ، وفي نَفسِ المكَانِ و الزمَان..

هُنَا : مِصر / أمُ الأمواتِ و الأحياء..

أحيَائُهم في ذُل ، و أمواتُهم في هنَاء..

يَقولُ الحَاضِرُ و الإحصَائِياتُ الوَاقِعِيةِ بِأنَ أكثَرَ مِن 5 مَلايِينِ مُواطِنٍ مِصرِي مِنَ الأحيَاءِ يَعيشُونَ في المقابِرِ ، إنَ بِدَايةَ نُزُوحِ الأحيَاءِ إلى آخرِ مَنَازِلِ العُسرِ في مِصر

كَانَ في عَامِ 1898 للميلادِ ، و قَد كَانت أولَ دَفعَةِ نُزوحٍ في تِلكَ الفَترة 10 آلافِ حَيٍّ ، و لأنَ القُبُورَ خَارجَ إطَارِ الغَافِلينَ فَإنَّ الفُقَراء الذِينَ لَيسَ لهُم مأوى إلا المَوت تَكَاثَرَ فيهم هَذَا العَدَد إلى 25 ألفاً في عَامِ 1910 مِيلادِي ، و بَعدَ أن تَقَاسَمَ الأحياءُ و الأموات كُعكَةَ القُبورِ أخَذَ الأمواتُ تَحتَ الأرضِ مسكَناً لهُم ونَصَبَ الأحياءُ أحلَامَهُم فوقَ التُرابِ لِيَصِلَ العَدَدُ إلى 50 ألفٍ في عَامِ 1944 مِيلادِي، و لأنَ الثَورات و الشَروات و الأفكَارِ الجَدِيدَة جَأت لِضَمَانِ حُقُوقِ الأحيَاءِ و فَصلِ الأمواتِ عَنِ الأحيَاءِ وَصَل العَدد في ثَورةِ 23 يُولِيو إلى 80 ألفِ مُواطِنٍ مِصريٍ حيٍّ، كَمَا أنَّ البِشَارة

التي تُنبِئنا بِالإحصَائِياتِ السنَوِية لِهَذِهِ الكَارِثَة التي يَتَكَاثَرُ بِهَا الأحياء في ضِيافَةِ الأموَاتِ تَقول:

سَتَصِلُ النِسبَةُ في عَامِ 2030 مِيلادِي إلى 10 مَلايينِ مُواطِنٍ يَسكُنونَ المَقَابِر إن بَقِيت الحَالةُ هَكَذَا ، و إن أحبَبتَ أن تَكتَشِف بِأُمِ عَينَيكَ فَعَلَيكَ بِمَقَابِرِ القَاهِرةِ الكُبرَى..

هُوَ المَاضِي إذاً..

تِلكَ اللعنَةُ التِي تُطَارِدُكَ أينَمَا اتَّجَهتَ ، فَكُلَمَا زَادَ عُمرُ هَذَا الكُونِ زَادت مَآسِيهِ وكَوارِثُهُ و ظُلمُهُ، لَيسَ خَوفاً مِنَ المُستَقبَلِ و لا جَزَعاً بِالحَاضِرِ، بَل لأنَنَا ضَحِيةُ مَاضٍ بِأفكَارِهِ و خُرَافَاتِهِ و عَادَاتِهِ و تَقَالِيدِهِ التي ابتَدعنَاهَا و صَارَت مُلازِمَةً لِقَضَايَانَا.

هكَذا انتَ ستَكونُ في هذَا العَالمِ بِأكملِهِ، و خُصُوصاً في الوَطنِ العَربي، ففي مَاضِينَا الذِي تَرعرَعَ عَلى كُثبانِ أجدَادِنَا لمْ نَكُن نَسمَعُ بِسُني و لا شِيعي، و لا دُرزِي و لا عَلوي ، و لا مَارونِي و لا قِبطِي ، و لا مَسِيحِي و لا مُسلم..

رَحَلَ المَاضِي .. و رَحلَت حُثَالتُهُ مِن أفكَارٍ كَانت أحلَاماً، و تَمدَّدَ الحُلمُ الفِكرِيُ المُعَادِي للإنسَانِية و لِإنسَانِيتنَا، لِيُصبِحَ الحُلمُ سَيفاً و الأملُ كَراهِيةً و الحُبُ نِسبِياً لِمن نَاصَرَكَ أو أجَارَكَ..

لَقَد جَعَلوا مِنَ المَاضِي بُعبُعاً و شَبَحاً .. و اليَوم تَطوَرَ هَذا الماضي إلى مَدافِعَ و صَوارِيخَ و تَرسَانَاتٍ صدِئة، لا

تُستَعمَلُ إلا لنَقتُلَ بَعضَنَا البَعض و لنُحلِلَ رِقَابَنَا بِشَرعِيةِ المَاضِي الذِي لمْ يُعَلِمْنَا سِوى الوَحشِيةِ و القَسوة..

نَظَرِيتِي تَقول:

المَاضِي إن لمْ يكُن دَرساً و غِداً لإخمَادِ السُيوف، فَلا يَستَحِقُ أن يُلتَفت إلِيهِ أو يُفتَخرَ بِهِ ..

مُستقبَل ،

أحلامٌ لمْ تكتمل، ولعلها لن تأتي ،

شيءٌ ستفرحُ لهُ وعلى الأغلب هُوَ مُبكِي ومُدمِي،

صدقني ليسَ تذمُراً و لا سُوءُ ظنٍ بِالمُستقبل، بَل لأنَ الإرصادَاتِ الغَيبِية و التأشِيراتِ المُستقبَلِية ، مَبنِية على دِراسَاتٍ لا تُنبئُ بِخَيرٍ، كانتِ الأجيال مَع جَهلِهَا الشَدِيد في مَعَارِكِ الحَياة أشَدُ حِكمَةً و حِنكَةً، و لأننَا شَهوانيون إلى أبعَدِ مَا يُحِيطُهُ العَقلُ و بِصِفَتِنَا أجيالٌ كَانَ و لا زَالَ أبَانا و أُمَنا الحَضَارة و التِكنِلوجيا فَإِنَنَا أنشأنَا لمُستقبَلِنَا أحلاماً على مَقاسِ نوايَانَا التي تَخلو مِن نيكوتين الحُب..

أنتَ مُصَنفٌ في الوَطنِ العَربي لِقَبِيلةٍ، لدِينٍ، لوَطنٍ و لِقَضَايَا لا تَعرِفُ لِمَا تَذُبُ عنهَا و على الأغلَبِ تُذبَحُ في سَبيلِهَا، فَقط لِشَيءٍ وَاحِد..

مِن أجلِ قَبرٍ رُخَامِيٍ سَتَأتِيكَ أجيَالُ المُستَقبلِ بِورودِهَا أو رُبمَا بِبولِها لِتُحطِمَ اسمَكَ الذِي يَعلوهُ عُنُوانٌ على شَاكِلةِ كِذبة:

الشَهِيد فُلان ابنُ فُلان الفُلانِي..

أنتَ بِالأصلِ قَد لُعِبَ بِعقلِكَ، عِندمَا أعدوا لَكَ الوعُودَ بِالمنَاصِبِ المُستَقبَلِية و الأوسِمَةِ الوَهمِيةِ، قُلْ لي بِرَبِ هَذَا التُرابِ مَاذَا حَقَقتَ مِن أحلامِكَ المُستَقبَلية التِي لم تَأخُذ مِنهَا سِوى حَفنَةِ تُرابٍ و حُفرةٍ هيَ مُعدَةٌ لَكَ مُنذُ أن أشبَعُوكَ وعُوداً..

نَحنُ نَدُورُ داخِلَ حلَقاتٍ مُفرَغة و كِذبَةٍ لِسَدِ بُكَاءِ ذَلِكَ الإنسَانِ الذِي يَعيشُ فينَا بِجُملةٍ غَيرِ مُفِيدةٍ اِسمُهَا:

بُكرى أحلى..

أيُ مُستَقبلٍ جَمِيلٍ بِانتِظَارِنَا أو العَكس،

وكَأنَ هَذِهِ الكَلِمَةَ لَهَا مَعنَى آخَر، طَبعاً هَذَا إن دَقَقتَ النَظَر بِالوَاقِع جيداً ، كَأن تَستنتِج مِن بكرى أحلى عِبَارَةً أصح :

حلم إبليس بالجنة..

نَحنُ الجِيلُ المُشبَعُ بالخُرافَاتِ، الذي نَرى المُستَقبل بِنصرِ بَعضِنَا البَعض ، و لأننَا نأبى أن نَرمِيَ المَاضِي بِخُدعَةٍ مَفَادُهَا : مَن لا مَاضِيَ لهُ لا حَاضِرَ لهُ،

أجيَالٌ مَحشُوةٌ بِالخُزعبلَاتِ و القِيقِ و النَهِيقِ، يَتسَابَقونَ إلى الضَباب و الرمَادِ ، يُصنِفُونَ أوهامَهُم على حَسبِ التَقدِير المَحلِي للنِفَايَاتِ العُقَدِية ، و هُنَا صَنفٌ يَرى المُستَقبَل مِن ثُقبِ مُؤخِرَةِ التَقلِيد الإبدَاعِي ، شُعُوبٌ تُفَرِقُهَا آلِهَةٌ و تَجمَعُهَا شِيشَة..

هَذَا الصَنفُ بِالذَات أشدُّ انحِلالاً مِن الصَنفِ الآنِفِ الذِكرْ،أجيالُ نانسي عجرم و هيفا وهبي و مريام كلينك و نجوى كرم، هُنَا تَقِفُ كُلُ الأعضَاءِ و بالذَات عُضواً غَيرَ قَابِلٍ لِلجُلوس على الشَاشَاتِ المُلونَةِ و أمَامَ الفِيديوهاتِ المَحمومَةِ بِالشَهَوَاتِ و الشُبُهَاتِ..

و عِينَكَ لا تَشوف اللحَم العَربي المُغطَى بالسِيليكون..

لُحُومٌ مَجَانِيةٌ تُقَدَمُ لأجيَالٍ تَرى مُستَقبَلهَا بِين أفخَاذِ المُطربَاتِ العَربياتِ ، أجيَالٌ جَاهِزةٌ لِتسرِيغِ أُنُوفهَا بين ثَديِيٍّ أيةِ فَلتَانَةٍ عَربيةٍ..

القَرَابين الصَوتيةِ ، و الحنَاجِرُ المُتَعدِدَةُ المَقَامَات، و الشِفاهُ اللمَّاعةُ، و العيُونُ ذاتُ العدَسَاتِ المُلونَةِ و المُلتَصِقَةِ ، و اللحُومُ المَعروضَةُ للقَضمِ، و البُطُونُ النَحِيلةُ، و الفسَاتِينُ البرَّاقَةُ، و الرُمُوشُ الرَقْرَاقَةُ ،كُلُ هَذِهِ الأشيَاءِ مُعدةٌ للمُستَقبل...

لمْ يَعُد الحُلمُ العَربيُ قَضِيةً وَطنِيةً و لا حَضَارةً مُتَبادَلةً مُتْحِدَةً و لا انسِجَاماً أخوياً بِين أبنَاءِ العَرب، و لا مُستَقبلاً مُشرِقاً و مُشَرِّفاً..

مُستَقبَلُنَا مُخِيفٌ خَانِق..

يكفِينَا ألماً بِأن تُفرِقُنَا آراءُ و أفخَاذُ المُطرِباتِ ،

أي هَذَا إن كُنَّ مُطرِباتٍ بِالأصلِ، أكبرُ قَضِيةٍ للخِلافِ الدَائِم الذِي شَلَّ حَركَةَ مُواقِعِ التَواصُلِ الاجتِمَاعِي بِينَ المُطرِبةِ الإمَارَاتِية أحلام الشَامِسي المُلقَبة بِالمَلِكة..

طَبعاً ضَعْ لَقَبَها بَينَ قوسين.. !!

و بِين المُطرِبَة اللبنَانِية نَانسِي نَبِيل عَجرم..

مَعركَة بِعنوَان:

أخاصِكْ آه..

و لكِن المَلكَة أحلام رَفَضَت اسم العِنوان لِتستبدِلهُ بِعنوانٍ آخر ألا و هُوَ:

قُول عَنِي مَا تِقول ، صَوبي كم صَعب الوصُول..

يا فَرحَةَ الأُمَةِ العَرَبيةِ بِالمُستَقْبَلِ المُنتَظَرِ، صَدقِني بِأنهُ وَطنٌ سكْسي و لا إنسَاني إلى أبعد مَا يَستوعِبُهُ عَقلُكَ، فَبينمَا الجُوعُ يَشُنُ هَجمَتَهُ الشَرِسةَ على الوَطنِ العَربي و خاصةً اليَمن، الصُومَال، العِراق، سُورِيا،غَزة في فِلسطِين و مُوريتَانِيا ، رَاحت هَذِهِ المَجوعَة النِسائِية مِن عَارِضَاتِ اللحُومِ الشَهوانِية لا الأصواتِ الإنسَانِية ، يَعرُضَن تَبرُجَهُنَّ و فَسَاتِينَهُنَّ أمَامَ كامِراتِ و شَاشَاتِ الوَطنِ بِلا حَياءٍ و لا خَجَل، حَيثُ أفَادَت

وكَالاتُ العُرِي و اللحُومِ الغَارِقَة بِالمكيَاجِ و المُقنَّعَةِ بِالأصبِغَةِ:

بينَما كَانَ الشَعبُ السُورِيُّ يَنَامُ عَارِياً و جَائِعاً تَحتَ خِيامِ الكَرمِ و الضِيافَةِ في وَقتِ اللجوءِ و النُزوحِ إلى الجِيرانِ العَرب، اِرتَدَت لحَظَتَهَا المَلِكَةُ أحلام تَضَامُناً مَع الإخوةِ العَرب فُستَانَهَا في إطلالتِهَا الأَخيرة في آخِرِ حَلقَةٍ مِن بَرنامَجِ Arab Idol الذِي يَبلغُ قِيمَتُهُ حَسب مَا ذَكَر المُصمِم 300 ألف دولار أمريكي، شُكْراً أيتُهَا المَلِكَة على هَذِهِ الوَقفَةِ التَضَامُنِيةِ، و إخوةُ الخِيامِ لنْ يَنسَوا هَذِهِ اللفتَةَ المُباركة..

لَيسَ هَذَا و حَسب..

فَلن يَنسَوا العُيونَ العَربيةَ عِندمَا كَانت تُشَاهِد الخُبزَ الجَافَ في أحلامِهم في اليَمن ، المُطربة:

ميريام فَارِس..

في البرنَامج التَلفزيوني : أنَا و العَسل .. و فُستَانَهَا الذِي صَمَمَهُ رامي القَاضِي، الذِي عَمِلَ على تَطرِيزِهِ بِخيوطٍ مِن الذَهبِ حيثُ وَضعَ فِيهِ 24 قِيراطاً ، إذ بَلغَ ثَمنُ الفُستَانِ رُبعَ مِليونِ دولارٍ أمرِيكيٍ، و لمْ تَكتَفي الرَاهِبة ميريام بِوقفَتِهَا مَعَ الإِخوةِ العَرب في اليَمن بَل رُبمَا بَاعتْهُ في المَزادِ العَالمِي لِتُطعِمَ إِخوةَ الجُوعِ و القَضِية..

و أمَا البُطونُ المكشُوفَةُ في الصُومَال، فَلهَا اللَّهُ فَقط، و تَضَامُناً مَعهَا كَشفَ فُستان الفنانة : مَايا دياب،

فُستَانهَا في البرنَامج الفضائِحي : المُتَهم . الذِي صَمَّمَهُ نِيكولا جُبران ، و لو رَأيتَ الفُستَان يا صدِيقي.. !

عِينَكَ مَا تَشوف الفَضائِح .. تمَاماً كمُستقبَلِنَا ، المكشُوفِ للجمِيع، و عَارِي أمَامَ الوَطن، و وَقِح كُلُحومِنَا المَفضُوحَةِ ، و فَلتان كإنفِلاتِ النَجمَاتِ العَربيات..

أستَحِي أنْ أصِفَ هَذِهِ النِفَايات بِالنُجوم..

أينَ حُنجَرَةُ كَوكَبِ العَربِ و العُروبة السَيدة التِي لن يُرسَلَ لَنَا الزمَان كَصوتِهَا و إنسَانِيَتِهَا.. !!

أينَ طُهرُ مَلِكَةِ الأسمَاعِ و الأفئِدَةِ الرقِيقةِ الرقَراقةِ السَيدة : فَيروز ، التِي أبت أن تُعري ذَاتَهَا و صَوتَهَا للعِيون ، بَل أهدَت قَلبَهَا و صباحَهَا للحُبِ و السَلام.. !!

كَانتِ الأصواتُ فِيمَا مَضَى سِتراً و غِطَاءً و حُلماً حَقِيقياً للمُستَقبلِ، أصبَحَتِ الأصواتُ اليومَ نَهِيقاً و نِفَاقاً و تَفَاخُراً و تكبُراً و فسَاداً و عُرياً فَاحِشاً بِلا حَياءٍ و لا خَجَل..

مَا هَكَذَا تُسَاقُ الإبِلُ أيتُها السِيدَات ، لَقد أستحَت المُمَثِلة الأمرِيكِية أنجَلِينَا جُولِي عِندمَا نَزلت إلى المُخِيمَاتِ العَربية في الأُردُن و لُبنَان أن تَفعَل فِعلتَكُنَّ..

و لَكِن لأننَا في وَطنٍ سكْسي دَائِمَا تَغلِبُنَا عِبارةُ:

إن لم تَستَحي اِصنَعْ مَا شِئْت ..

الخَوف ،

هذَا النَمطُ مِنَ الحَالةِ النَفسِيةِ ، يَتوَفرُ في الوَطَنِ العَربي بمَقَاسَاتٍ و أشكَالٍ و أذواقٍ و نَكَهَاتٍ عِدة ، يُعدُ هذَا التَركِيبَ الغَير إنسَانِي مِن أهمِ مُقَومَاتِ بِنَاءِ المُجتَمَع العَربِي ، فَأنتَ تَدورُ في وحلِ رَحَى هذَهِ الحَالةِ مُذ أن امتَزَجتْ نُطفَةُ أبِيكَ المَنوِيةِ بِبُويضَةِ أُمِكَ في مَخلَدِ رَحِمِهَا ، و عِندَ ظُهورِ حَالاتِ الحَملِ على تَفَاصِيلِ المَدَام تَبدَأُ الأُسرَةُ بِرسمِ خَارِطَةِ حَيَاتِكَ على حَسَبِ بِنَائِهم الذَاتِي للأفكَارِ المُتَوارَثَةِ جَاهِلاً عَن جَاهِلٍ، و في لَحظَةِ خُرُوجِكَ إلى بَرِ الحَيَاة ، تَبكِي بأعلى حظِكَ ، لَيسَ هُنَا مَكَانٌ لِدُمُوعِ الفَرح ، بَل لأنَ نَصِيبَكَ قَد وَقَعَ عَلَيكَ بِأن تَعِيش في مُجتَمعٍ أنتَ بِالأصلِ بِغنى عَنهُ،

و يَبدأُ لَطمُكَ و ندبُكَ في الأشهُرِ الأُولى لَيسَ لِعلةٍ مَرَضِيةٍ بَل لِعَدمِ رِضاكَ بِوجُودِكَ بينَهُم..

مَنْ أنْتُم.. !

هَذِهِ الكَلِمَةُ التي لمْ نَستَمِع إليها ، إلا في إحدى خِطَابَاتِ مُجرِمِ لِيبيَا و المُهرِجِ الفعَالِ مُعَمَّرِ القَذَافِي في اجتِمَاعاتِ المُؤامَراتِ العَرَبيةِ التِي تَضبِطُ إيقاعِ البَلطَجةِ و الدِيكتَاتُورِية..

أمَامَ الشَعبِ الذِي انتَفَضَ ضِدِ هَذَا المَجنُون..

رَاح بِأعلى صَوتِهِ ، و بِتَعجُبٍ مُكَابِرٍ يَقُولُ لِلشَعبِ الأعزَل:

مَنْ أنْتُم..

نَحنُ الشَعبُ يا حَاج..

حَسَناً .. يَنظُرُ الطِفلُ إلى لَفِيفِ البَشَرِ مِن حَولِهِ ، و قَد كَسَاهُ الرَبُ حَالةً مِنَ التَعجُبِ و الغَرابَةِ ، يُحَاوِلُ الغُرَبَاءُ إضحَاكَهُ مُحتَبِينَ بِكَافَةِ وَسَائِلِ السعَادَةِ ، و لأَنَّهُ غَيرُ رَاغِبٍ بِمُبادَرَاتِهِم الفَاشِلة، يَجعَلُ لَيلَهُم نَهَاراً ، و نَهَارَهُم لَيلاً..

و لَو كُنتَ حَكِيماً و دَقَقتَ بِفَلسَفَةِ ردَّاتِ الأَفعالِ الغَيرِعقلانِيةِ لِهَذَا الطِفل، و تَرجَمتَ التَذبذُباتِ الخُرافِيةِ التي تَخرجُ عَن مَحضِ إرادَتِهِ ، لَوَصَلتَ إلى نِتَاجٍ رُبمَا هو المَحصُول النِهَائِي لِهَذَا العَوِيل مَفَادَهُ:

أعِيدوني إلى عَالمِ الأرحَامِ ، لا أُرِيدُ أن أرَى أحَداً ، لَم تُعجِبُني هَذِهِ الوَجُوه ، أتَوسَلُ إلِيكُم..

و لأنَ الأطفَال يُولَدونَ بِكَواتِمِ خَرسَاء ، طَبعاً عَدا البُكَاءُ و العَوِيل، فَإنَّ للرَبِ فِي ذَلِكَ الأمرِ حِكمَة..

لا تَستَعجِل بالأحدَاثِ و لا تَقُل لِي لمَا هَذِهِ الحِكمَة ، إنهَا بِبَسَاطةٍ حِكمَةُ التَروِيضِ و التَقيِيدِ و الانقِيادِ إلى لُغَةٍ لا تَرغَبُ بِالتَحدُثِ بِهَا ، و إلى الإندمَاجِ بِمُجتَمَعٍ و لو بِالصرمَايَة العَتِيقَة..

في أولِ ثلاثِ سَاعَاتٍ سَيُطلَق عَليكَ اسمٌ مُلازِمٌ لَكَ اسمٌ مُكَوَّنٌ مِن مَزِيجٍ مُتَوارَثٍ ، بِهِ تَحيَا و بِهِ تَموت و بِهِ تُبعَثُ إن شَاءَ الله .. اسمٌ لِزَعِيمِ قَبِيلةٍ و مِنَ المُؤكَدِ سَوفَ تَكرهُهُ ، أو اسمٌ لِنَبِيٍ أو وَلِي أو قِدِّيسٍ أو قِسِّيسٍ أو مُلحِدٍ أو صَالِحٍ أو عَاطِلٍ و هَلُمَّ جَرَّاً .. و عِندمَا يتَبَدَلُ أهْلُ الزمَانِ حَسبَ ثَوراتِهِم الطَائِفِية ، ستَكُونُ

أنتَ القَاتِلُ أو المَقتُولُ أو الجَانِي أو الضَحِية .. فَقط لأنَ اسمكَ مُقَيدٌ بِاسمٍ مَا يُخَالِفُ أهوَاءَ و مُعتَقَدَاتِ قَاتِلِكَ..

على مَذَابِحِ التَارِيخِ و طُغيانِ الأفكَارِ لن يَشفَعَ لكَ القَتَلةُ لأنَكَ في نَظَرِهم تَهدِيدٌ و وَعِيدٌ بِنَزعِ سُلطَتِهم .. تَخَيّل مُجَردُ اسمٍ مُكَونٍ مِن عِدةِ أحرُفٍ عَرَبيةٍ مَنسُوبَةٍ لأحَدِ عَالِقَةٍ و جَبَابِرةٍ هَذا الوَطن الذِي يَحُدُهُ الخَوفُ مِن كُلِ الحُدودِ الدَمَوية .. سَيُكَلِفُكَ حَيَاتَكَ..

نَعَم مَنْ انْتُم!!

أسبُوعٌ ، أو ثَلاثَةُ أسَابِيع ، أو شَهر ، قُل رَبِي أعلَمُ بِعدَتِهم ، تُجَرِدُ ثِيابَكَ أمَامَ هَذَا الضَعفِ الهَائِلِ، و تُقطَعُ حَشَفَةٌ مِن قَضِيبِكَ و تَغرَقُ بِالدِمَاءِ ، لِتُنسَبَ

إلى فِئةٍ مِنَ الشَرائِعِ السَاوِية ، و رُبمَا تُجرَدُ مِن كَافةِ خَشيتِكَ لِتُعمَدَ بِبركَةٍ مِنَ المِياه ، و لِتَغرقْ و تَغرق و تَغرق..

لن يُنجِدُكَ أحدٌ إلا صَوتُ عَبدِ الحَليم حَافِظ عِندمَا غنَى لكَ:

إِني أتنفَسُ تَحتَ المَاء..

و في وَسطِ جَمعٍ غَفِير مِنَ المُؤمِنينَ ، تَتَعالى الزَغَارِيدُ في رِحَابِ الدِمَاءِ و المَاءِ و بُكَائِكَ، لِتَتَخطَى المَرحلَةَ الثَانِيةَ بِنَجَاحٍ، لَيس كمَا تُرِيدُ أنتَ بَل كَمَا يُرِيدُ خَوفُ هَذَا المُجتَمعِ الذِي يُحِيطُ بِكَ بُغيَةَ الانقِضَاضِ عَليكَ..

السُؤال .. هَل أنتَ فَرِيسَة.. !!

نَعَم أنتَ فَرِيسَةٌ و ضَحِيةٌ عَرَبِيةٌ إلى أن يَتَمَكن الجَمِيعُ مِنكَ و مِن أفكارِكَ و حُرِيتِكَ ، فَالحُرِيَةُ أمرٌ مَخذُوفٌ في كُلِ الأدِيَانِ و الأطيَافِ و التَجمُعَاتِ العَرِبية ،فَكَمَا الشَعبُ محكُومٌ لدَى أنظِمَةٍ إجرامِيةٍ كذلِكَ حُكَامُ هَذِهِ الأنظِمَةِ محكُومُونَ لأنظِمَةٍ غَرْبِيَةٍ تَصُبُ في جَيبِ الحاكِمِ العَرِبي و مَن حَكَمَهُ مِن شَبحٍ غَربي، و أيضاً حُكَمَاءُ الشَعبِ كَمَا يُحِبُ المُطَّبلِينَ أن يُنَادونَهُم وَجَدوا مَخرَجاً لِيصَبوا غَضَبهُم على أبنَائِهِم بِشيءٍ يُدَعى الطَاعَة ، حَتى لَو كَانَت هَذِهِ العَائِلةُ تَسِيرُ على الطَرِيقِ الخَطَأ..

فَجُتَمعاتُنَا مَعَ الجَمَاعَةِ،و كأنَّهم وَجَدُوا شَمَاعَةً بِعنوان:

يَدُ اللهِ مَع الجَمَاعَة..

ولكِن فَهِموا مِنهَا الجمَاعَة بِمنظُورِهَا الرقِيي لا بفَلسفَتِهَا العَقلِيةِ ، لا تَهُمُ الخَلفيةُ الجَمَاعِية للعَقلنَةِ فِي مَاهِيتِهَا ، بَل كُلُ مَا يَهُمُهُم الكِذبةُ التي أشبَعُونَا إياهَا على مَدَارِ قُرونٍ عِجَافٍ مِنَ التَخلُفِ الفِكري و الشُذُوذِ العَقلي الجَاهِلي بِمَقولةِ:

السَوادِ الأعظَم..

و إن كُنتَ رَجُلًا مِن صُلبِ رَجُل قُل كَمَا قَالَ حَمزَةَ عَمُ النَبي عِندمَا لَطمَ أبَا لَهَب على وَجهِهِ:

رُدَّهَا عَليَّ إن استَطَعت..

أنتَ كَرَقمٍ جَبان ، لا تُساوي في مِيزانِ المَنطِقِ جَناحَ بَعُوضَة ، فَلا تَعتَقِد بِأنَ هَذِهِ الطُقُوسُ التي تُقَدمُ لَكَ في حَالِ خُروجِكَ مِنَ عالمِ الأرقَامِ الرَحِمية هيَ

أدَاةٌ مِن أسلِحَةِ الشَجَاعَةِ ، بَل إنهُ نَوعٌ مِن الخَوفِ و الجُبنِ بالمُحيطِ الخَارِجِي للعَالمِ العَرَبي..

النَادِرونَ في العَالمِ العَربي هُمُ القِلةُ القَلِيلةُ التي خَرَجَت مِن هَذَا الظَلامِ الدَامِسِ بِأفكَارٍ خَالِيةٍ مِنْ رَواسِبِ الكَراهِيةِ و التَعصُبِ الطَائِفِي و القَبَلي الأعمَى، فَكَانَتِ النَتِيجَةُ بِأن أطلَقوا عَلِيهم وَصفاً هُوَ بِالأصل يَلِيقُ بِمن وَصَفَهُم:

مَجنُون..

فَإنَ كَانَ التَقدُم بِالفِكرِ و المَنطِقِ جُنُون ، فَلِيشهدِ الثَقَلِينِ بِأنَنِي قَد جُننتُ..

مِن شِدَةِ وَقعِ الخَوفِ الذِي اجتَاحَ الفُطنَاءْ ، لم يَعدُ يَقوى الحَكِيمُ المُتَعقِلُ مِمَن يَخَاف ، إبدَاءُ الرَأيِّ في مَحوِ الأفكَارِ

الدَمَوية يُعَدُ جَرِيمةً ، و العِقَابُ فِيهَا أعلاهُ القَتلُ بِاسمِ القَانُونِ أو الطَائِفَةِ أو القَبِيلةِ ، و أدنَاهُ النَفيُ و المُلاحَقَةُ و الطَردُ و التَكفِيرُ و الهمزُ و اللمزُ.. الحَلولُ الوَسَطِيةُ فَقط تَجِدُهَا في الكُتبِ المُقَدَّسَةِ و المَراسِيمِ الدُستُورِية ، و الإنصَافُ الوَاقِعيُّ في هَذِهِ التَفَاصِيلِ النُصُوصِية في مَحلِ خَبرِ كَانَ..

الخَوفُ في البِدَايَاتِ ، هُوَ بِحَدِ ذَاتِهِ رُعبٌ يَترَصدُكَ إلى النِهَايَاتِ ، فَالأفكَارُ المُتَحَرِرَةُ، و الأفعالُ الإنسَانِيةُ المُجَرَدَةُ مِنَ الوَعِيدِ و النَيلِ و الذَبحِ و التَهمِيشِ، هَذِهِ تُعدُّ مِنْ المُفسِدَاتِ لَدى مُجتَمَعَاتِنَا..

وَحدَهَا إنسَانِيتُكَ إن تَعرَّت مِن هذَا الكَمِ الهَائِلِ مِنَ الاعتِقادَاتِ المَحشُوةِ بنُصُوصٍ مَبنِيةٍ عَلى القَتلِ و الإرهَابِ ، سَتَعلمُ بِأنَكَ حَقاً صَالحٌ للحَيَاة..

لو كُنتَ مُسلِماً ، و رَأيتَ جَارَتَكَ المَسِيحِيةَ قَد سَقطَت أمَامَ بيتِها ، هَل سَتُسعَدُهَا و تَحمِلُهَا إلى أقرَبِ مُستَشفَى ، أم سَتَقول : لَمسُ المَرأةِ حَرَام.. !

سَيهرُبُ الخوفُ بِأكمَلِهِ ، و تَتَلاشَى هَذِهِ العَادَاتُ القَذِرةُ ، و تَحِلُ إنسَانِيتَكَ في عِينِ عَقلِكَ لا بعِينِ جَهلِكَ ، لِتُغِيث تِلكَ المَرأةَ مَعَ الفَارقِ العَظِيمِ الذِي تَحمِلانِهِ مِن مُعتَقدَات..

الخَوفُ وَحدَهُ مَن يُحجِمُكَ كَإنسَانٍ مُقَيدٍ و جَبَان..

شَجَاعة ،

دَائِماً كُنتُ و لا زِلتُ أُعوِّلُ على عِبارَتِي الآتِية:

مَن لم يَتغَلب على ذَاتِهِ ، فَلن يَصِلَ إلى عَدوِهِ و لو بِشَقِ الأنفُسِ و إنفَاقِ جَمِيعِ الثَروات..

القَضِية يَا عَزِيزِي ، هِيَ المُبَادَرَةُ إلى أيةِ خُطوةٍ للتَخطِيط، أي التَخطِيط لأيةِ قَضِيةٍ تُعَدُ شَجَاعَة لأنَكَ كَسَرتَ رُوتِين ذَلِكَ الفَأر الذِي في دَاخِلِكَ ، و التفكِير في استراتِيجِيةِ التَقدُمِ لأيَةِ لَمحَةٍ جَدِيدة بِشَرطِ أنَ تَخدِمَ الإنسَانِية هَذَا يَعنِي بِأنَكَ تُرِيد أن تَخرج مِن قَفَصِكَ الوَهمِي الذِي أغلَقَهُ عَلَيكَ المُجتَمعُ المُتَقوقِعُ ، و في وَسطِ هَذِهِ الدَائِرةِ التي تَحُدُهَا الجَمَاجِمُ و وَحَلُ الدِمَاءِ في مُستَنقَعَاتِ الوَطنِ العَرَبِي ، تَموتُ كَثِيرٌ مِنَ الأفكَارِ

البَنَاءةِ التي تَصبُ في مَصلحَةِ الانفِتَاح الفِكري و الإنسَانِي..

ألقِي نَظَرةً إلى شَوَارِعِ الوَطنِ العَرَبي..

دَقِقْ في الأنمَاطِ و الأقنِعَةِ التي يَملأُهَا البُؤسُ..

لا تُكَلم أحداً مِنهُم، بَلْ دَعهُم و مَصَائِبَهُم يَطُوفُونَ بينَ المَحَالِ التِجَارِيةِ ، سَتَصِلُ إلى نُقطَةٍ تَعرِفُهَا الأنظِمَةُ العَربيةِ اسمُهَا:

حُقَنُ التَخدِيرِ المُنَهجِ..

هَذِهِ الحُقَنُ المُنتَشِرةُ في كُلِ زُقَاقٍ تَعبُرُ مِنهَا رَاحَةُ البَالِ و الجَسَد، مَحشُوةٌ حَتى في دُبُرِ أحلامِكَ ، و لَكِن إنْ سَلَّطتَهَا على مَشَاهِدِ الوَاقِعِ فَستَعلم بِأنَنَا في طَامَةٍ كُبرى .. في الحَيَاةِ اليَومِيةِ لِكُلِ مُواطنٍ عَربي و خُصُوصاً

الوَطن الذِي حَمَلَ بِي وَهناً و أتَى بِي عَبرَ عَمَلِية قَيصرِية ، مَا يُعرف : بِسُورِيا..

السِيناَرِيو الرُوتِينِي الذِي مِنَ الصَعبِ عَلِيكَ تَخطِّيهِ ، لأنهُ سَوفَ يَتخطَاكَ و يَاكُلُ و يَشربُ مَعَكَ و يَقضِي عَلِيكَ على مَائِدَةِ الحَياة ، ألا و هُوَ اليَومُ الجَدِيد:

مُنهمِكونَ طَوالَ اللِيلِ بِالأحلامِ التي تَسُوقُنَا إلى جَلبِ لُقمَةِ الحَلالِ، و أخذِيةُ النهَارِ تركُلُنَا إلى السَعِي إلى المَجهُولِ ، و لأننَا غَارِقُونَ بِالخَوفِ و جِراحِ الأوهَامِ، فَإننَا نُضَمِدُ جِراحَنَا بِالأقدَارِ ، كَالذِي يكذِبُ على ذَاتِهِ و على تَعبِهِ ، و مَا إن تَحصَل على هَذِهِ اللقمَةِ، حَتَى يَأتِيكَ جَلادوكَ بسِياطِ قُوانِينِهم ، و المَعنَى الحَقِيقِي لِهَذَا النَوعِ مِنَ الجَلدِ هِيَ المَقُولةُ المَشهُورة:

(لا بيرحموا و لا بخلوا رحمة الله تنزل علينا..)

يُقَاسِمونكَ لُقمتَكَ ، و خُبزَ عِيالِكَ ، و مَباهِجَ وَاقِعِكَ ، و مُخطَطاتِ أحلامِكَ ، يَسرِقون كَرامتَكَ و كَرامَةَ أبنائِكَ و تَتَجرَدُ أمَامَ وَطَنِكَ في آخِرِ كُلِ شَهرٍ مُفلِساً فَقِيراً ذَلِيلاً صَابِراً مُحتَسِباً ، فَقط مِن أجَلِ وَهمٍ وَاحِدٍ ، ألا و هُوَ الأمَان..

بَل إنهُ الرُعبُ و الإستِذلال..

سَيُلازِمُكَ الشَقَاءُ حَتَى المَوت، و إن لمْ تَمُتْ سَيراً فَسُوفَ تَموت قَهْراً ، لأننَا شُعُوبٌ رُبِّيت أنَامِلُ أظَافِرِنَا في وَحلِ الخوفِ و الرُعبِ ، لم نَعُد نَعلَمُ إلى أينَ سَنَفِرُ، هُنَا على هَذِهِ الأرضِ لا يُوجدُ شَيءٌ يَستحَقُ

لأجلِهِ الحَياة ، فَالحَياةُ هُنَا بِقَبضَةِ لُصُوصِ الوَطن و سُرَّاقِهِم الذِين يسألونَكَ و لا يُسْألون..

فَكَما تَخَافُهمُ هُم يَخَافونَكَ..

يَخشُونَ مِنْ شَبَحِكَ النَائِمِ في دَاخِلِكَ ، فالظَلَمَةُ يَرونَ المَظلومين أشبَاحاً نائِمَةً و يَخشُونَ مَسَاسَهَا ، فالشَجَاعَةُ هِيَ ثَورةٌ مُستَعِرةٌ تَقلِبُ الأرضَ رأساً على عَقِبٍ..

أثبَتَتْ ثُلةٌ مِنَ الشُعوبِ العَربيةِ بِأنْ لا زَالَ ضَمِيرُهَا حَيٌ يُرزق ،كيف و أين و متَى .. لا أعرف..

و لَكِن إن أحبَبتَ أن تَرى بِأُمِ عَينِكَ .. فَلَكَ في شَعبِ تُونُسَ و مِصرَ و لِيبِيا و سُورِيا أسوةٌ حَسَنَةٌ..

الشَجَاعَةَ في تُونس..

هوَ المَظهَرُ الذِي وَصَلَ إلِيهِ البَطَل:

طَارِق الطَيب مُحَمد بُو عِزِيزِي..

فَالمَشهَدُ كَانَ مُؤلماً، و لَكِنَّ الشَجَاعَةَ كَانَت أقوى مِنَ الظُلمِ ، حَتى وَصلت رَائِحَةُ الكَرامَةِ إلى كُلِ بَيتٍ عَرَبِي ، لمْ يَجد هَذَا العِلاقُ مَا يُعبِّرُ بِهِ عن غَضَبِهِ ، إلا بِالموتِ حَرقاً أمَامَ شَوارِعِ الوَطنِ عَامَةً و أمَامَ أعيُنِ لِصُوصِ الوَطنِ خَاصَةً ، فَالمَكَانُ كَانَ تُونس و الزَمَانُ يُومُ الجُمُعَةِ مِن 17 يناير عَام 2011 مِيلادِي ، و كَانَ المَسرَحُ الارتجَالِيُ أمَامَ مَقرِ وِلايَةِ سِيدِي بُوزِيد ، حَيثُ قَام بِإضرام النَارِ بِجَسَدِهِ احتِجَاجاً على مُصَادَرَةِ سُلُطَاتِ الظُلمِ عَرَبَتَهُ التي يَقتَاتُ مِنهَا هُوَ و عَائِلتَهُ ، و الكَارِثَةُ لم تَكُن في العَربَةِ و حَسب بَل في الكَرامَةِ التِي أضحَت حُلم كُلِ مُواطِنٍ عَربي ، بَل لِرفْضِ سُلُطَاتِ

المُحَافَظَةِ قَبولَ الشكْوى التي أرَادَ تقدِيمهَا في حَقِ الشُرطِية فَادِية حَمدِي ، التِي صفَعتهُ أمَامَ المَلأ قَائِلةً لَهُ بِكُلِ وقَاحَةٍ بِالفَرنسِية : dégage ..

أي تَعنِي : إرحَل..

و هنا ثار الشعبُ غضباً، و ظَهرَت مَلامِحُ الشَجَاعَةِ ، فَأصبَحَت كَلِمَةُ : إرحَل .. رَمزاً و شِعَاراً للثَورةِ التُونِسِية ضِدَ الطَاغِيةِ النَازِي : زَين العَابِدِين بِن عَلِي..

لَقد تُوفِي بُو عَزِيزِي بَعدَ هَذِهِ الحَادِثَةِ بِثَمَانِيةَ عَشَرَ يَوماً ، نَعم إنَهُ ارتقَى إلى السَمَاءِ كَنجمَةٍ مُضِيئَةٍ، إلى كُلِ جَبانٍ ، تِلكَ النَجمَةُ التي تَحُضُكَ على القِيامِ ضِدَ الظُلمِ و القَمعِ المُتَوارَثِ حَكِماً عَن حَاكِمٍ ، بل ظَالِماً عَن ظَالم..

نَحنُ بِحَاجَةٍ إلى شَجَاعةٍ ضِدَ نَزعَاتِنَا الهَجِيةِ التي رَضِعنَاهَا مِن ثَدْيِيِّ التُراثِ الدِينِي و العَادَاتِ المُتَخلِفةِ ، قُلْ لي بِاللهِ عَلَيكَ لِمَاذَا كُلُ مَا يُنوِهُ و يُنَبِّهُ لَهُ العَقلُ مَرفُوضٌ أمَامَ التَعصُبِ العُقَدِي الطَائِفِي !! ، سَتَقُولُ لي بِأنهَا خُطُوطٌ حَمراء ، و الخوضُ فيها كُفرٌ و رِدَّةٌ ، و لا مَكَانَ للعَقلِ أمَامَ عَظَمَةِ النَقلِ ، و هَذَا دِيدَنُ المُتَشرِدِقين و المُتَشَدِقين و الفَلاسِفَةِ الضَّالين ، و في خِلافِنَا عَنِ المُسلَمَات نِفَاق و رُبمَا خُروجٌ مِنَ الدِين، و العَقلُ لا يَستوعِبُ كُلَ هَذِهِ التُّرهَاتِ و التَشوهَاتِ ، و العَادَاتُ و التَقَالِيدُ مَعقُودَةٌ بِزِمَامِ الدِين، و لَولا ذَلِكَ لَمَا حَضَّ الشَرعُ السَمَاوِيُ على مَكَارِمِ الأخلَاقِ في مَدَاخِلِ و مَخَارِجِ العَادَاتِ و التَقَالِيد .. و هَلُمَ جَراً مِنَ الانغِلاق..

يا الله ، في أيِّ كَوكَبٍ نَحنُ نَعيش.. !

يا عَزيزي لو انتَبَهتَ إلى كُل هَذِهِ الطَعَنَاتِ في نَواياي ، و ألفَاظِكَ التِي تَتَرَاشَقُ عَلى أدَبِ حَدِيثي معَكَ كَالسِهَامِ القَاتِلةِ ، سَتَعرِفُ بِأنَ الله بَراءٌ مِن هَذِهِ التَبَعِيةِ و المَنهَجِ الذِي سِرتَ عَلَيهِ .. دَقق مَعي بِكُلِ كَلِمَاتِكَ:

الكُفر ، الخُروج مِنَ المِلَّةِ ، الرِدَّة ، الابتِدَاع ، النِفَاق، الانحِلال ، الاستِشراق ، الضلال ، ..

ألفَاظٌ نَابِيةٌ ، و سُمُومٌ قَاتِلَةٌ ، و فِكرٌ جَاهِزٌ لأيةِ عَمَلِيةٍ إرهَابِيةٍ ، و هَذِهِ النَغمَةُ بِكَفَةٍ و نَغمَةُ الأنَا و أنتُم و نَحنُ و هَؤلاءِ بِكَفَةٍ ثَانِيةٍ ، و لَكِنَّ أقفَالَ الانحِيازِ و الانغِلاقِ في حُفَرةٍ كُلُهَا تَهدِيدٌ و وَعِيدٌ ، هَذَا يَدُلُ على الخَوفِ ،

لَيسَ خَوفاً عَلى العَقِيدَةِ بَل فَزعَاً مِن الحَقِيقَةِ و هُرُوباً مِن مُواجَهَةِ العَقلِ بِحَلِ الدِمَاءِ العَالِقَةِ فِيهَا عَوَاطِفُكَ و مَشَاعِرُكَ التَصنِيفِيةِ..

يا الله..

كَم نَحنُ نُتقِنُ دَورَ التَخوِينِ و التَصنِيفِ ، بِسَبَبِ تَخَلُفِ العقَلِ ، و حَصرِ العِلمِ في زَاوِيةٍ طَائِفِيةٍ مُعَقَدَة لا تَقبلُ تَحكِيمَ العَقلِ و تُجَيشُ العَوَاطِفَ و المَشَاعِرَ لِصَالِحِ زُعمَائِهَا الرُوحِيين المُنقَسِمِين و المُنشَرِخِين بِمحَارِبِهم و صَوَامِعِهم ، وكُلُهُ باسِمِ الله ، وكُل هَؤلاءِ المُتَسلِقِينَ على جُدرانِ شَرائِع الله لا يُرِيدونَ لِهَذِهِ الأزمَة التي أصَابهَا فَيروسِ الجَهلِ أن تَنتَهِي ، لِأنهُم هُم المُستَفِيدِين ، و

عِبَادَ اللهِ أُدَاةٌ و ضَحِيةٌ وسْطَ خِلافَاتِهِم التي لا و لنْ تَنتَهِي ..

المُجتَمع ،

جَمعٌ غفِير مِنَ البَشَرِ ، أُنَاسٌ لهُم عُقُولٌ يُفَكِرونَ و يَشعرونَ و يتعايَشونَ و يَقتَتِلونَ مِن أجَلِ قَضَايا لو عُدت إليهَا ، لَوجَدت بِأنَ الذِي يَجمَعُهُم أكثرُ بِكَثِيرٍ مِنَ الذِي يُفَرِقُهُم..

مُجتَمعٌ .. أنتَ مُرغَمٌ عن أنفِكَ أن تَعِيشَ بِهِ ، لَقد سَقَطتَ بِهِ سَهواً مِن غَيرِ مَحضِ إرادتِكَ ، فَلا مَفَرَ مِن قدرِكَ المَحتُوم إلا لَاصِقاً للجِراحِ و كَذِبَةٌ جَمِيلةٌ و رَقِيقَةٌ تُدعَى:

الصَبر..

على إثِر هَذِهِ الكَلِمَةِ ، نَفَدَ صَبرُ كُوكَبِ الشَرقِ أم كُلثُوم و رَاحَت تُغنِي:

مَا تصَبرنِيش بوعُود .. وكَلام مَعسُول و عُهُود..

و رَاحَ العَالمُ كُلهُ يُرَمِمُ هذَا البَلاءَ العَظِيمَ بِالإندمَاجِ فِيمَا بِينَهُم ، فَلا مكَانَ لحُرِيتِكَ و لا لِكَرَامتِكَ في مُجتَمعٍ يعتبِرُ العُبودِيةَ سَبِيلاً للخَلاصِ و يُقَدِّسُ التَقوقُعَ تَحتَ مِحرابِ التُرَاثِ المُتَخَلِّفِ..

في هَذا المُجتَمعِ أنتَ مُغَيبٌ عَنِ الوَعِي ، و مُخَدَّرٌ مِن كُلِ مناَقِدِ وجُودِكَ ، و إن أمعنَتَ النَظَر جَيداً..

ستَعلمُ بِأنَكَ في مُجتَمعٍ غَارِقٍ بِالفسَادِ و الاستِبدَادِ، طَبَعاً لأنَكَ جُزءٌ مِنهُ فَيجِبُ عَلى ذَكَائِكَ أن يَمتَزِجَ بِغَبائِهم ، مَع أنِي لا أُعِدُهُ غَباءً بِقَدْرِ مَا أُعِدُهُ خُبثاً ، صَدقِني يا عَزِيزِي لا أعلَمُ مِن أينَ أتوَا بِهذَا الكَمِ الهَائِلِ مِنَ الأمرَاضِ المَبنِيَّةِ على الخُبثِ و نَجَاسَةِ

الفِكرِ ، فَعِندَمَا تَتَصَفحُ كُتُبَهُم السمَاوِية و الوَضعِية ، ستَذُوبُ حُباً بِقَوانِينِ مَكَارِمِ الأخلَاقِ و الحَضِ على الخَيرِ، و لَكِن أرضُ الوَاقِعِ لَهَا بَصمَاتُ عَارٍ على جَبِينِ هَذَا المُجتَمع..

لمْ أعُد أُصدِقُ هَذَا النِفَاقَ العَقَائِدِي الذِي لم يُؤثِر بِهم إلا سَلباً و قُبحاً و تَردِياً أخلَاقِياً و فِكرِياً .. لا مَكَانَ للمَنطِقِ في وجُودِ الفَسَاد ، لأنَ الأسَاسَات القَومِية و الفِكرِية و الطَائِفِية فَاسِدة ، بِدَايةً بالأنظِمَةِ إلى آخِرِ مَعقِلٍ مِن مَعَاقِلِ الفَردِ العَربي ، كَيفَ تُرِيدُ أن تَبنِي فِكراً مَنطِقِياً يَصبُ في مَصلَحَةِ الإنسَانِ على أنقَاضِ مُجتَمَعٍ قَد كُسِرت جَمِيعُ سُيوفِهِ الوَهمِيةِ و لمْ يَبقَى لَهُ إلا

دِرعُ العُبودِيةِ ، هُم بِالأصلِ ليسوا رَاضِين عن أنفُسِهم ، أيُعقَلُ أن يَنزِلَ عَليكَ رِضَاهُم.. !!

بِحَسَبِ الخِبرة في المُجتَمعِ الذِي أُجبِرتُ أن أُسَايِرَهُ حَاولتُ أن أكونَ على عُلوٍ شَاهِقٍ مِنَ النَجَاحِ ، عَبرَ أحلامٍ كِدتُ أن أجعَلهَا وَاقِعاً ، فَأنت كَفَردٍ ستَبقَى تَسعَى بِكُلِ طَاقَتِكَ إلى نُقطَةٍ ضَبابِيةٍ اسمُهَا المَجهُول ، و أن تَنجَحَ في مُجتَمعٍ نسبةُ الفَاشِلينَ فِيهِ قَد تَبلُغُ 99٪، و طَبعاً إنني لا أُلقِي باللُومِ عَلَيهِم ، فَهَذَا يُعَدُ إنجَازاً عَظِيماً و مُعجِزَةً رَبَانِيةً مُدهِشَةً ، في بِدَايَةِ طَرِيقِكَ إلى الحُلُمِ أو بِعِبَارةٍ أصَح .. إلى المَجهُول ، ستَبتَلِعُ مِعَ الصَدمَاتِ قَسوةً و هَفوة لم تَسعهَا مِمَن تَحدثُوا عَن جَهنم ، في البِدَايةِ هُنَا طَرفَان نِدُكَ و خَصمُكَ ، و لَكِن بِأقنِعَةٍ بَيضَاءَ

نَقِيةٍ ، كَنقَاءِ نَوايَاكَ تِجَاهَهُم ، الصَنفُ الأول هُوَ المُحِيطُ الذِي حَولَكَ مِن بَني البَشَر و خاصةً أقربُ النَاسِ إليكَ ، و الطَرفُ الثَانِي هُو نِظَامُ البَلدِ الذِي يَتَغلغَلُ بِهِ عَفنُ الفَسَادِ ، فَأَنتَ وَاقِعٌ .. وَاقِعٌ .. لا مَحَالة..

يُقَالُ بِأنَ أول مَعصِيةٍ اِرتُكِبَت في السَمَاءِ هِيَ الحَسدُ..

و تِلكَ هِيَ مَعصِيةُ إبلِيسَ حِينَ أبَى أن يَرضَخَ و يَمتَثِلَ لأوامِرِ اللهِ ، ألا و هُوَ السُجُودُ لآدَم .. فَكَانَ الجَزَاءُ بِالنّفِي مِنَ الجَنَةِ و النُزُولُ إلى الأرَض..

و لَو لَاحَظتُم مَا شَاهَدَتهُ عَينَاي مِن حَفرٍ و تَحقِيرٍ و سُخرِيةٍ مِن المُجتَمَع الذِي أوقَعَنِي في بَعضِ حُفَرِهِم مَراتٍ و

مَراتٍ ، لَقُلتُم بِأنَ إبلِيسَ لَم يكُن مُعَلِماً ، بَل تَرعرعَ و تَشبَعَ و تَوارَثَ هَذَا الكَمَ الذِي لا يُحصَى مِنَ الحَسَدِ مِنهُم..

فَلَكَ الحَقُ أن لا تُصَدِّق ، ولِي الحَقُ في قَولِ الحَقِيقَةِ..

و أمَا المَعصِيةُ الثَانِيةُ التِي تَنَاقَلهَا المُؤرِخونَ ، و تُعَدُ هَذِهِ المَعصِية أولَ مَعصِيةٍ وَقَعت على الأرض ، ألا و هِيَ مَعصِيةُ القَتلِ ، و أولَ مَن سَنَّ هَذِهِ الجَرِيمَةَ بِينَ أبنَاءِ آدَامِ قَابِيلَ و هَابِيل لا جَبرَهُم الله و لا أدخَلهُم في رَحمَتِهِ..

و عِندمَا تُشَاهِد الجَبابِرة في سِينَارِيو الأرضِ مِن الذَبحِ و القَتلِ بِدَمٍ بارِدٍ .. فَاعلم بِأنَ هَذِهِ السُلالَة النَجِسَةَ لمْ و لنْ تَنتَهِي أبداً ، و أنَا أعتَقِدُ اعتِقَادَاً جَازِماً بِأنَ سُلَالةَ

قَابِيلَ و هَابِيل هُم لا زَالوا على قيدِ الطُغيانِ يُمَارِسُونَ مَذَابِحَهُم و مَجَازِرَهُم في الوَطنِ العَربي بِأسمَاءٍ لمَاعَةٍ مُستَعَارَةٍ ، و بأنظِمَةٍ و أقنِعَةٍ قَومِيةٍ ألا و هِيَ الأنظِمَةُ العَربيةُ..

فَشلُ حَركَةِ أي طَامِحٍ و نَاجِحٍ و حَالمٍ ، في رَقبَةِ اثنين ، المُجتَمعُ الحَاسِدُ و الأنظِمَةُ القَاتِلةُ ، فَأن تَحلُم بِأن تَنجَحَ فَهذَا بِحدِ ذَاتِهِ نَجَاحٌ ، فَلا مَكَان للضُعفَاءِ و الفُقَراءِ و المَساكِينِ بين الحَسَدَةِ و القَتَلة مِن أبنَاءِ المُجتَمعِ العَربي .. إن هذَا المُجتَمعَ على مَقَاسِ الفَاسِدِينَ و الحَاسِدِينَ و الحَاقِدِين و القَتَلةِ و المُرتَشِين و المُزَورِين ، فَلا مَكَان لَكَ بينَهُم ، لأنَ مَن شَرِبَ من مُستَنقَعِ الفَسَادِ لا يُمكِنُ إصلَاحُهُ ، لأنَ الإصلَاح في هذَا المُجتَمع

بحَاجَةٍ إلى أمرٍ خَارقٍ للعَادَة ، و هَذِهِ الكَرامَاتِ قَد دُفِنت مَعَ أنبيَاءِ الله و اضمَحلت دَاخِلِ أقفَاصِ و مَقَامَاتِ أولِيائِهِ..

فَالمُجتَمعُ العَربيُ يَرى صَالحَهُ في بيوتِ الله و الصَوامعِ و المَسَاجِدِ و التَبرُكِ بِالقُبورِ و هَلُمَّ جَراً .. و يُشترَطُ إطلاقُ اللحَى و ارتِدَاءَ الحِجَابِ و الخِمَارِ و البُرقُعِ ، و دُخُولَ الخَلواتِ و عَدمَ مُخَالَطَةِ البَشَرِ ، و هَذِهِ الكَارِثَةُ بِفَهمِ مُقتَضَيَاتِ الصَلاحِ تُعدُ نَظَرِيةً فَاسِدَةً على حَسَبِ خِبرَتي و مُخَالَطَتِي لهَؤلاءِ البَشَرِ مِنَ الطَبقَةِ التي تُطلِق على نَفسِهَا الطَبقَةَ المُحَافِظَة .. و بِالتَأكِيد على حَسَبِ تَقدِيراتِي للطَبقَةِ العُنصُرِيةِ المُتَفَرِدَةِ بِمَصَالِحِهَا الشَخصِيةِ

و التِي لا تُرِيدُ أن ترى أيَّ بَصِيصٍ مِنَ النُورِ سِوى جَهلِهَا..

تَقُولُ الإحصَائِياتُ الوَاقِعِية ، بِأنَ مَادَةَ الحَشِيشَةِ في أوروبَا مُنتَشِرةٌ و مَسمُوحٌ بِهَا في كُلِ مَكَان ، و تُبَاعُ و تُشتَرَى و تُلتَهمُ أمَامَ خَلقِ اللهِ و في وَضحِ النهَارِ و على عِينَكَ يَا تَاجِر ، و أمَا في الوَطَنِ العَربي و أفغَانِستَان فَهِيَ مَمنوعَةٌ ، و يُعَاقَبُ مُتَعَاطِيهَا بِالسَجَنِ و تَاجِرُهَا بِالإعدَامِ ، لَيسَ لأنهَا مُحَرَّمَةٌ و حَسب بَلْ لأنهَا تُؤثِرُ في اقتِصَادِ الوَطن كَمَا يَزعُمُون..

لم أضرِب هَذا المِثَال لتَقرأهُ فَقط..

بَل لأُعطِيكَ تَحلِيلاً بِأنَ أقل نِسبَةٍ لِتعاطي الحشيشِ موجودةٌ في اوروبا، مَعَ أنَ هَذِهِ المَادَةَ مَسمُوحٌ بِهَا، بينمَا

الأنظِمَة التي مَنَعت هذَا السُمَ القَاتِلَ و فِيهَا ما فِيها مِن مَعَابِد و مسَاجِد و كَنائِس و رِجَال دِين و رِجَال تَوعِية تَجِدُ أنَ 50٪ مِن مُجتَمَعَاتِهم يَلتَهِونَهَا بِشَرهٍ و مُكَابَرةٍ مِن بَابِ:

كُلُ مُمَنوعٍ مَرغُوب..

كَتَبَ الدكتُور يُوسُف القَرَضَاوي كِتَابَهُ الذِي لَاقَى مَكَاناً في عُقُولِ مَن فَهِموا بِأنَ (الله رَحمَةً) رَواجاً لا مَثِيلَ لهُ ، بِعنوَان:

الحَلَالُ و الحَرام..

فَكَالعَادَةِ دُعَاةُ الفِتَنِ و التَكفِيرِ و التَصنِيفِ ، أكثَرُ مِنَ القَلِ في الرأسِ ، هؤلاءِ المُقَنَعونَ بِمكيَاجِ التقوى ، تَجِدُ فَتَاوَاهُم جَاهِزةً للفتكَ بِأيِ لَمحَةِ سَلَامٍ يَعمُ نَفعُهَا على

الإنسَانِيةِ ، و لإنَهُم جُزءً مِنَ المُجتَمعِ جَاهِزِين لأي نِظَامٍ دِكتَاتُورِي للتعَايُشِ مَعَهُ ، حَاصِل القِصَة..

جَائَهُ أحدُ دُعَاةِ الظُلمِ و قَالَ للدكتُور يُوسُف القَرَضَاوِي:

يا شَيخ لمَاذَا جَعَلتَ عُنوانَ الكِتَابِ : الحَلالُ و الحَرام .. لمَاذَا لمَ تُوفر هَذِهِ التَسمِيةِ بِعنُوانٍ يَليقُ بِكَتابِكم ب : الحَلال و الحَلال ؟؟

أرَادَ هَذَا الوَغدُ بالسُخرِيةِ مِن مَنَاهِجِ الحُبِ التي تُوقفُ سفَكَ الدِمَاء ، و لَكِنَ بِهِ مِن خُبثِ المَعصِيةِ الثَانِيةِ ، لِيُخرِسَ الدكتُور يُوسُف نَهِيقَهُ رداً عَلَيهِ:

ـ أنَا سَوفَ أفعَل كِتَاب : الحَلالِ و الحَلال ، و هَذا يُشَرِفُني ، و أنتَ اَنزِل على الخَلقِ غَضبَكَ و

ألِف لهُم تَعصُبكَ بِكتَابٍ سَمِّهِ : الحَرامُ و الحَرام..

هَذَا هُوَ المُجتَمَعُ الدَمَويُ الذِي تَرعرَعتُ فِيهِ ..

الفَرد ،

أنت كَفَردٍ كَائِنٌ بَحِي خَالِي مِنَ المَشَاعِرِ و التَعبِيرِ عَن الرَأي طالمَا ما زِلتَ على قِيدِ العُبودِيةِ في الوَطنِ العَربي ، فَأنتَ نَسَمَةٌ لَكَ اسمٌ و رَقمٌ و مِيلادٌ و مَقبَرَةٌ ، الفَرق بينَ أن تَكونَ إنسَاناً هُنَا و بِينَ أن تَكونَ فَرداً هُوَ ذَلِكَ الفَاصِلِ الشَاسِعِ الطُوِيلِ المُنتَهَى..

و آه على المُنتَهَى..

تِلكَ الغَايَةِ التِي لن تَستَطِيعِ الإمساك بِهَا ،

دَائِماً الحَقَائِقِ التِي تُعَرضُ إعلامِياً ، عَن طَرِيقِ الشَاشَةِ الزَمَنِيةِ للمُجتمَعَاتِ المِثَالِية ، و الصُحُفِ الوَطَنِيةِ لِتَصِلَ إلى العُيونِ الغَربِية ، هِيَ الخُدَعَةُ لِتَرقِيعِ مَا يُصَارِعُهُ الفَردُ في المُجتَمَعِ العَربي مِن إرهَاصَاتٍ ، لَعلهُ

يَدفَعُ الثَمنَ بِآلةٍ كَاتِمَةٍ لأفوَاهِ الكَرامَةِ ، يَقُولونَ لَكَ بِأنَ الفَرد هُوَ عُضوٌ فَعَالٌ في بِنَاءِ الوَطن ، و هَو جُزءٌ لا يَتَجَزَأ مِن أعمِدَةِ هَذَا التُراب ، و الأساسُ الفَذُ الذِي سَيحمِي حُدُودَ الوَطن بِفكرِهِ أو بِسلاحِهِ أو بِلِسَانِهِ أو بِقَلبِهِ و مشَاعِرِهِ و عَواطِفِهِ .. هَذَا إن كَانَ لَدَيهِ شَيءٌ يَشعُرُ بِهِ بالأصل ، و لا غَرَابَةَ بِالتَنظِير و التَجهِيزِ و التَحضِيرِ لتَلمِيعِ الفَردِ و إبرَازِ وَظِيفَتِهِ أمَامَ العُيونِ التي تَترَصدُ خَيراتِ البَلادِ المَنهُوبَةِ..

فَأنَا كَفَرد أعِيشُ في مَحبُوحَةٍ مِن الفَسَادِ المُنظَمِ و لَكِن خَلفَ نِظَامٍ لا يُؤتَمنُ غَدرُهُ البتَة ، فَالبُعبُعُ المُقَنعُ هُوَ الرَاعِي الرَسمِي لِنَشرِ سُمُومِ الفَسَادِ على أرضِ الوَطن ، فَالإثَارةُ بِحدِ ذَاتِهَا لا تَحتَاجُ إلى مُقَومَاتِ صَلاح ،

لأنَ الفَسَادَ أخَذَ حَقَّهُ في إثَارَةِ مَن يَتربَصُونَ بِالوَطنِ و الفَردِ ، فَالمُفسِدُ الأعظَمُ و حَامِي حِمَى الوَطن و القَائِدُ الذِي تُفدى لأجلِ طَلَّتِهِ القُلوبُ بِحَاجَةٍ للمَساحَة و للفردِ..

المَسَاحَة إن صَحَ التَعبِير يُطلَق عَلَيهِا وَطن..

و بِفَضلِ الحَرامِيّة و الفَاسِدِين و المُفسِدِين و الذِين لا يُرِيدونَ للوَطَنِ غَيرَ خَرابِهِ و حَشوِ جُيوبِهم و حِسابَاتِهم و أمعَائِهم ، فَقد تَمَ نَقلُ هَذهِ المَسَاحَةِ العَقَارِيةِ في نَظَرِهم مِن مُلكِيةٍ عَامَةٍ إلى مُلكِيةٍ خَاصَة ، و لَكِن هَذِهِ المَرة لَيسَت لَهُم .. بَل لهُ .. مَن هُو يا حِزركُم..

إلى حَافِظ الأسَدِ وورَثَتِهِ..

تَخَيل أن تَستَيقِظ ذَاتَ صبَاحٍ و تَجِدَ أرضَكَ التِي أردتكَ طَرِيحاً في فَنَاءِ الشَيبِ ، قَد وضعَ عَلِيهَا لافِتَةٌ :

هَذِهِ أرضُ أبو فُلان الفُلانِي !! .. مَن هَذَا أبُو فُلان.. !

مَاذَا ستَكُونُ ردَةُ فِعلِكَ كَفَردٍ ، بينمَا أبُو فُلان خَلفَهُ عَلي بَابَا و أربَعِينَ حَرامِي ، وكُلُ حَرامِي لَهُ مِنَ المَلفَاتِ السَاخِنَةِ و القَضَايا الطَاحِنَةِ مَا لَن تَجِدَهُ عِندَ المُجرِمِ النَازِي هِتلَر..

هَكَذَا أنا كَفَرد و هَذَا مَا حَصَل مَعَ أجدَادِي مِن قَبل..

استَيقَظنَا كأفرَادٍ و وَجدنَا الوَطنَ المُثِيرَ قَد كُتِبَ على سَمَائِهِ:

سُورِيا الأسَد..

دائِماً المُجرِمُ لا يَستَطِيعُ أن يَرتَكِبَ جَريمَتَهُ إلا إذا ساندَهُ مُزمِرونَ ومُطبِلونَ واولادَ حرام، و لأنَكَ فَردٌ لا تَقوَى على هذهِ الجُموعِ الغفِيرةِ مِنَ الخَنَازِيرِ الفَاسِدَةِ ، فإنَ مَكانَكَ الصَمتُ و بَعدَهَا الخوفُ ، و بَعدَهَا العُبودِيةُ و بَعدَهَا أن تَكونَ فَرداً فَاسِداً كَمَا تَقتَضِيهِ مَصالِحُ الفَاسِدِين الذِينَ يَعتَلونَ مِنَصَاتِ الوَطَن..

القُلوبُ النَظِيفَةُ التِي لمْ تُلوث شَرَاييِنُهَا بِمُستَنقَعِ الفَسَادِ ، هُم كَذلِكَ أفرَاد ، وكَمَا يَقُولُ المَثَلُ الشَعبِيُ المَشهُور:

(يَدٌ وَاحِدةٌ لا تُصفق..)

و الوَاقِعُ يُحيلُكَ إلى الكَثَرة ، لأنَ الأغلبِيةَ هُم مُلوثُونَ فِكرِياً و مَادِياً و مَعنَوِياً ، فَالمَشَاعِرُ لَدَيهم مُعَطلةٌ مَادَامَ

الوَطنُ و أفرَادُ الوَطنِ يُنتِجونَ لَهُم مَنَاصِباً و أحذِيةً لِتَدوسَنَا..

أمَا الفَردُ فَيا أسفَاهُ على وَاقِعِهِ..

الفَرد مَشطورٌ إلى نِصفَين:

نِصفٌ مَحسوسٌ و نِصفٌ مَلمُوس..

أمَا الحِس فَقد فَقدنَاهُ مُذ أن طَلَ بِطَلتِهِ الإجرامِيةِ حَافِظُ الأسَد ، و زَادَ فِينَا طِينُ عَدمِ المُبالاة بِلَةً ، مُذ أن سَطعَ نَجمُ ابنِهِ بَشَار الأسد في سَمَاءِ خَوفِنَا ، فُقدَانُ حَاسَةِ الحِس كَانَ بِالنِسبَةِ لَهُم أمَراً في غَايَةِ السُهُولَةِ ، يَقُولُ الخُبرَاءُ في عَالَمِ المُلاكَمَةِ:

بِأنَ تَلقِي أولِ ثَلاثِ ضَربَاتٍ على الوَجهِ هِيَ المُؤلِمَةُ ، و مَا بَعدَ ذَلِكَ يُخدَرُ الجَسَدُ و يَفقُدُ إحسَاسَهُ كُلِياً و هَذَا مَا يَجعَلُهُ قَوِياً أمَامَ خَصمِهِ..

آه يا صَدِيقِي مِنَ الضَربَاتِ و اللكَمَاتِ التي أهَالت على أحَاسيسِينَا ، لا أعتَقِدُ بِأنَهَا كَانت لَكَمَاتٍ فَقَط ! ، بَل كَانت رَكلاتٍ بِكُلِ وَسَائِلِ القَسوةِ و العُنفِ ، أولُهَا الخَوفُ و اخِرُها المَوتُ ، هَذِهِ العِصَابَاتُ التِي تُدعَى الأنظِمَةَ العَربِيةِ قَدِ استَحكَمت بأحَاسِيسِ الشُعُوبِ و انهَالت عَلِيهَا ضَرباً بِكَافَةِ أدواتِ و وسائِلِ الضربِ وبمنتهى القسوةِ، حَتى أضحَت مَشَاعِرُ الفَردِ مُبَرمَجَةٌ على حَسَبِ الهُتَافَاتِ و المَسِيراتِ التِي تَهتُفُ بِجَلادِينِ هَذِهِ

الأنظِمَةِ التي صَارَ لِزَاماً عَلَيهَا الرَحِيلُ مِن أرضِ الوَطن..

الجَلَاد .. و الفَرد .. و الرَحِيل

كُلُّها أسمَاءٌ تَدورُ حَولَ الوَطن ، و في ذاتِ الوَقتِ تَتَصَارَعُ لِنَهبِ الوَطن ، و لَكِن كُلٌ على حَسَبِ طَمعِهِ أو نَواياه ، و الرَحِيلُ للجُبَنَاءِ و البَقَاءُ للأقوياء ، فَالوَطنُ لهُ نَظَرةٌ أُخرى بِركُوبِ سَنَبِهِ ، فَلا مَكَانَ للحَقِ و البَاطِلِ على تُرابِهِ ، المَكَانَةُ للقَوي فَقَط ، أي قَويُ الكَفِ و الضَربِ و الركلِ..

و مَهمَا عَلَى نُبَاحُ البَاطِلِ فَإنَ للحَقِ صَولةٌ و جَولةٌ سَتَرجَحُ يَوماً لِصَاحِ الفَردِ ، لأنَ هَؤلاءِ الجُرذَان مِن أهلِ البَاطِلِ هُم يَعلَمونَ عِلمَ اليَقِين بِأنهُم جُبنَاءٌ أمَامَ

أعَاصِيرِ الشُعُوبِ و أفرَادِهَا ، و للأقدَارِ أجنِدَةً تَجعَلُ الوِلدَانَ شِيباً ، ولَكَ مِن مَواقِفِ النُلِ التي رَأيناهَا و قَرأنَاهَا مُنذُ غَرقِ فِرعَون .. إلى أن رُميَ حُسنِي مُبَارك خَلفَ قُضبانِ السِجنِ أسوةٌ لِمَن كَانَ لَهُ قَلبٌ و استَمع القَولَ و هُوَ شَهِيد..

الفَرد العَربي..

ذَلِكَ الجَبان المُهَان أمَامَ عَمَالَةِ الشَيطَانِ و غَضَبِ الطُغيان ، أمواجٌ مِنَ الفِتَنِ تَتَقَاذَفُهُ ، و زَلازِلٌ تَهزُ ضَمِيرهُ عِندَ كُلِ غَصَةٍ ، غصَتَهُ الكُبرَى أنهُ مَا زَالَ يَتنفسُ ثَانِي أُكسِيد الفَسَاد ، لا مَاضٍ يَتَفَاخَرُ بِهِ سِوى الدِمَاء ، و لا مُستَقبَلٌ يَتَبَجَحُ بِهِ سِوى الضَباب ، يَسير مُتَكِلاً على الخُرافَةِ يَتَايَلُ على عُكَازِ الصَبرِ ، يُرِيدُ أن

يَصرُخَ بِأعلى وَجعِهِ ، لِيخرِجَ ذَلِكَ النُورَ الذِي أطفَأَهُ دُخَانُ الظُلمِ و الظَلام، إلى أينَ أيُهَا الفَردُ العَرَبِيُ.. !

لا يَعَلم ، و لا يُرِيدُ أن يَعلم ، و لا تَهمُهُ الخَرائِطُ المُقفَلةُ أمَامَ أعتَابِ جفنِهِ ، لا يَعرفُ إن كَانَ هَذَا ألمٌ أم أمَل لأنَهُ مُغَيَبٌ عَنِ الوَاقِعِ ، يَركُضُ بِكُلِ مَا بَقِي مِن قِواهُ للإمساكِ بِرِزقِهِ ، لأنَ مَن نَشَرَ هَذِهِ الظُلمَةَ قَيدَهُ بِعَكَاكِيزٍ تُقِلهُ إلى رِزقِهِ ، و لَو كَان رِزقُ الفَردِ لَهُ لَكَانَتِ المُصِيبَةُ تُبتَلعُ ، و لَكِنَ الطَامَةَ بِأنَهُ يَلهثُ خَلفَ رِزقِهِ و يَدفَعُ الضَرِيبةَ في آنٍ وَاحِدٍ ، المُحَاصَصَةُ على اللُقَمِ التي يَكِدُ و يَهدُ لَهَا و لأجَلِ عَينِيهَا لا مَفرَ مِنهَا ، لأنَنَا كَأفرادٍ مَوجوعِينَ حَدَ الموتِ..

و الفَرد إن بَقِيَ فَرداً .. سَيُكسَرُ و يُهزَمُ و يُذَلُ ، فَبالجَمعِ قُوةٌ و مِنعَةٌ و إصرارٌ على تَعطِيلِ آلَةِ الفَسَادِ و الاستبدَاد ، فالانفرادُ بِالذَاتِ و الحُكمِ و الرَأي و الأمرِ يكونُ للخَالقِ فَقط ، و مَن أرَادَ أن يُجَارِي الخَالقَ في وَحدَانِيتِهِ المُفرَدةِ بِالكَمَالِ ، سَيُعطِيهِ ذُلاً لم يَرهُ لا في وَاقِعِهِ و لا في مَنَامِهِ..

لا تَكن فَرداً فتُكسَر ، فَالوَطنُ مَعَ الجَمَاعَةِ ..

التَاريخ ،

هُوَ عَدَسَةٌ زَمنِيةٌ يَتوقَفُ عَليهَا أمرٌ عَظِيمٌ ،

هَذِهِ العَظَمَةُ مَقرُونَةٌ بِحدَثٍ تَمسَرت لأحدَاثِهِ آلةُ الزمَان ،

فَالمَجَازُ في تَثبِيتِ الوَقتِ عِندَ حَدَثٍ مُعَين ، هُوَ مَحضُ بِدعَةٍ تَراكُبِيةٍ أحدَثهَا قُومٌ مِن بَنِي البَشَرِ لِغَايةٍ تُدعَى المَصلَحة الفِكرية التي يُنَاصِرونهَا ، لا مَجَازَ أمَامَ حَقلِ الأيامِ ، و التَسلسُلُ الزمَنِيُ لمُرورِ الوَقتِ..

فَأنتَ في هَذَا العَالمِ تُعدُ جُزءً لا يَتجَزء في مُسلسَلِ الوَقتِ ، وكلَمَا دَاستكَ عَقَارِبُ الوَقتِ بِسُرعَتِهَا أضحَيتَ جُزءً مِنَ التَاريخِ ، فَالتَاريخُ عِبارةٌ عَن مُدَوَنَةٍ تكتُبُكَ و تُصوِرُ جُنُونكَ ، و أنتَ البَطلُ الوَحِيدُ أمَامَ مَساحَةِ المُستَقبَلِ البَيضَاءِ فَإمَا أن تَكونَ أنتَ جَلاداً و

إمَا أن تَكونَ ضَحِيةً ، لَن يَرحمَكَ التَاريخُ و لَن تَرى مِنهُ خَيراً ، سَيُقدِمُكَ إلى الأجيَالِ كَولِيسةٍ قَائِمَةٍ على السُخرِيةِ أو الفَخر..

أنتَ مُجَردُ تَجرُبَةٍ للمُستَقبَلِ و للأجيَالِ القَادِمَةِ لا غَير فَمهمَا حَسّنتَ مِن نَوايَاك فَالتَاريخُ غَيرُ مَعنِيٍ بِبَاطِنِكَ لأنَ الظَاهِرُ هُوَ المِقياسُ الوَحِيدُ لإدخَالِكَ في عَالمِ التَاريخِ ، و طَبعاً هِيَ الأفعَالُ بِحدِ ذَاتِهَا التي تُثبِتُ وجُودكَ على الأسطُرِ المُستَقبَلِيةِ و في ألسُنِ الأجيالِ القَادِمَةِ..

و يُشتَرَطُ على المُستَطِينَ أمواجَ التَاريخِ شَيئَانِ:

التَميزُ و الإبدَاع..

أن تقتُلَ شَعبكَ فَهذَا تَميُز ، و أن تُشبِعَهُ فَهذَا إبدَاع ، أن تأتِي بِمنتُوجِ غَيرِكَ مِن خَارِجِ وَطنِكَ فَهذَا تَميُز ، و أن تُنتِجَ و تَكسُو و تَزرَع و تَحصُد فَهذَا إبدَاع..

التَبيِيز في وَطنِي هُو إشهَارُ سَيفِ الذُلِ على الشَعبِ ، حَتى تَمَيزَ الجَلاد بِالظُلمِ ، و تَمَيزَ الشَعبُ بِالاحتِقَارِ ، فَالكُلُ مِن أبنَاءِ الأوطَانِ المُجَاوِرةِ عِندما تَتَخَطَى أقدَامَهُم الحُدُودَ السُورِية ، يَخضَعُونَ إلى وَابِلٍ مِنَ الأسئِلةِ مِن قِبَلِ المُخَابَراتِ السُورِية ، و يَأكُلُونَ أصَابِعَهُم نَدماً لأنهُم فَكروا بِالمَجِيءِ إلى الشَامِ ، و لا يَخفَى على أحَدٍ بِأنَ هُنَاكَ حَالاتٌ مِنَ الاختِفاءاتِ القَسرِية التِي حَدَثَت للوَافِدِين مِن قِبلِ عِصَباتِ الإجرَامِ و لُصوصِ الوَطن الذِين يَمسِكُونَ بِخِنَاقِ الوَطن ، هُنَا يَحدُثُ التيِيزُ

، في أولِ خُطوةٍ لَكَ إلى هذهِ البِلادِ ستشعُر بتَبِيُزِ الإجرامِ و اللُصُوصِيةِ..

و مَع أنَ هذِهِ العِصابَةَ تُقَاسِمُ الشَعبَ لُقَمَهُم و تَسرِقُ أرزَاقَهُم ، أبى الشَعبُ إلا أن يكونَ مُبدِعاً ، رَاحَ يُخِيطُ للتَارِيخِ صِنَاعَتَهُ بِعَرَقِ جَبِينِهِ و هِمَتِهِ ، وَاقِفاً أمَامَ الظُلمِ و الظَلامِ مُحتَمِياً بِالجُهدِ و التَعبِ لِيُشعِلَ شَمعَةً وَسطَ هَذَا الظَلامِ الدَامِسِ..

دَائِماً للتَارِيخِ وَجهَان..

وَجهٌ للنُورِ ووجهٌ للظَلامِ..

و هَذَانِ القِنَاعانِ لَيسَ لَهُمَا أيَّ انسِجَامٍ للتَارِيخِ ، لأنَ التَارِيخَ يَتَقَلَبُ مَع زَوَابِعِ أهَلِ زَمَانِهِ ، يَرتَدِي السَوادَ

في ظُلمَةِ مَن أخَاطوا للعَالَمِ الرُعبَ و الظُلمَ ، و يَبتهِجُ بِالنُورِ عِندمَا يَرى نُورَ السَلَامِ يَعُمُ على الجَمِيع..

التَارِيخُ رِيشَةٌ تَرسُمُكَ بِكُلِ تَفَاصِيلِكَ ، لا تَكذِبُ و لا تُنَافِقُ ، أنتَ تُجمِلُ نَفسَكَ بِأفعَالِكَ الحَسنَةِ و أنتَ تَحرِقُ ذَاتَكَ بِظُلمِكَ لذَاتِكَ و للآخَرِين..

كَم مِن أُنَاسٍ عَبرَوا التَارِيخَ على رِمَاحِ الدِمَاءِ ؟

و لَكنْ خَطّوا تَارِيخَهُم بِالسِيوفِ و المَنَاجِيقَ ، و طَوتهُمُ الأيامُ في مُخلّفَاتِ المَاضِي ، و جَاءتِ الأجيَالُ و تَطَورَ الظُلمُ كُلمَا شَقَ الطُغَاةُ نُورَ المُستَقبلِ..

سُحِقَ التَتَارُ و جَاءَ تَنظِيمُ القَاعِدةِ..

و اختَفى الصَلِيبيونَ ، و انتَشَرَ الدَوَاعِشُ

و هكَذَا .. الكُلُ يَفنَى و يَضمَحِلُ لِحكمَةٍ أرَادهَا الله تعَالى ، و بَقِي الشَاهِدُ الوَحِيدُ هُوَ التَارِيخ ، واقِفاً أمَامَ الخَلائِقِ ، يَحصُدُ المَشَاهِدَ و يَطوِي الصفحَات ، و يَبحثُوا بِبَصَاتِهِ عن أبطَالِ الزمَانِ و المكَانِ..

مَا يُخَلَّدُ .. هُوَ العِطرُ .. الصِيتُ الحَسَنُ .. و مَن كَانَ بينَهُ و بين الإنسَانِيةِ صِلَةُ قَرابَةٍ و نَسَب..

البِدَايَةُ مِن كُوبَا..

البَطَلُ كَاتبٌ و طَبِيب..

الاسمِ : تِشِي جِيفَارا..

زَعِيمٌ ثَوريٌ مَاركِسِي ، و قَائِدٌ عَسكَرِي ، و شَخصِيةٌ تَعشَقُهَا كُلُ المَخلوقَاتِ التِي تُحِبُ الحُرِية ، فَهَذَا الرَجُل مِقيَاسٌ و غِربالٌ لأصنَافِ البَشَر ، فَمَن أحَبهُ

أحَبَ الإنسَانِية ، و مَن أبغَضَهُ هُوَ مُجرِمٌ و قَاتِلٌ يكرهُ و يَحقِدُ على الحُرِية ، أفنَى صَوتَهُ و صُورَتَهُ و شَبابَهُ مِنَ أجَلِ الإنسَانِيةِ و قَضِيةِ الإنسَانِ كَإنسَان ، لم يَطمح للزَعَامَةِ مِن أجلِ عَقِيدةٍ مُعَينةٍ و لا لِحزبٍ مُعَين و لا يُنَاصِرُ جِهَةً مَا ، اتَخَذَ الجَبَالَ و الكُهُوف و الغَابَاتِ مَقَراً لَهُ ، لِنُصرةِ الإنسَانِية ، فَشَمَرَ التَارِيخُ عَن سَاعِدِيهِ و رَاح يَرسُمهُ و يُلوِنُ هَالَتَهُ بِأبهَى صُورة ، فَأحبَهُ الضُعَفَاءُ و المَسَاكِينُ و الفُقَرَاءُ و المُشَردِينَ و مَنِ اتَخَذُوا الكَرامَةَ دِيناً و مَنهَجاً ، فَتجدهُ فِي عُيونهم و قُلوبِهِم و أفواهِهِم..

مَا مِن ثَورةٍ تُقَامُ على وَجهِ الأرضِ ضِدَ الطَوَاغِيتِ إلا و تَجَدَ صُورَتَهُ على رَأسِ الإعصَار ، و لَكَأنهُ خُلِق للمَحَبةِ و السَلَامِ ، و مَاتَ على تُرابِ الحُرِية مِيتَةَ الشُرفَاءِ ، لم

يَعرفِ القُصُورَ و لا السَيارات المُوهَةَ و لا المُؤتَمرات المُتَأمِرةِ على البَشَر..

دخلَ جَميعَ مَنَازِلِ عُشَاقِ الحُريةِ و شَاهدَ كَيفَ الحُبُ يكون بينَ هَذَا الجَبَلِ و بينَ الشُعُوب الضَعِيفَةِ..

كَتبَ التَارِيخ كُلِيَتهُ ، و لا عَودةَ إلى الذِكريات العَطِرةِ إلا بِالنُهُوضِ إلى صُفُوفِ الأحَرارِ في هَذَا العَالمِ ، و الانضِمَام إلى رُكبَانِ الإنسَانِية..

الأمُ تِرينزَا..

المكَان : الهِند..

الزمَان : في كوكَبِ الأمعَاءِ الخَاوِية..

دَائِماً للتاريخِ موقِفُهُ المسانِدُ لِلنجومِ والعالِقةِ ، رَاحت هَذِهِ الرَاهِبةُ تَجوبُ الهِند شَرقاً و غَرباً ، تَبحثُ عَنِ الجِياعِ و الفُقَراءِ و المَساكِينِ و المَجَانِينِ ، و لم يكسِرِ التَارِيخُ صِنِيعهَا ، سَانَدهَا و رَفَعهَا إلى مَقَامٍ لا يَصِلُ إليهِ إلا قِدِيسيّ الرب..

كَنَجمَةٍ هِيَ تَلمَعُ في جُوفِ كُلِ يَتِيمٍ و مُشَرَدٍ و جَائِعٍ ، نَعَم رَحَلت ، و لكِنَ القلوب رَحَلت مَعهَا و ارتَدى التاريخُ بَدلَتهُ السوداء و مَشَى خَلفَ جنَازَتِهَا بَاكِياً ، و لَكِن هَلِ التَارِيخُ يَبكِي؟؟..

نَعم إنَهُ يَبكِي بِكُلِ أقلامِهِ و سِجِلّاتِهِ..

أُذكُرُ بِأنَ التَارِيخَ بكَى يَوماً في 6 / 9 .. عَامَ 1945 للمِيلاد..

حَيثُ قَامَتِ الوِلاياتُ المُتَحِدةُ الأمريكِية بِقَصفِ مَدِينَتِي هيروشِيمَا و نَاجَازَاكِي في اليَابان..

بِأكبَرِ قُنبُلةٍ نَوَوِيةٍ لتَحصُدَ 140000 رُوحٍ إنسَانِيةٍ فَقط في هيروشِيمَا و أمَا نَصِيبُ نَاجَازَاكِي فَكَان 80000 رُوحٍ بَشَرِيةٍ..

بكَى التَارِيخُ و أعَادَ الكَرةَ مَرةً أُخرى في الوَطَنِ العَربي..

هَذَا الوَطنُ المُثِيرُ الغَرِيبُ في جَمِيعِ حَالاتِهِ الغَرِيبَةِ..

شَبَّهَهُ التَارِيخُ بالنَبِي يُوسُفَ و إخوَتِهِ..

فَالذَبِيحَةُ لن تَسلمَ مِنَ الذَبحِ حَتَى و لو كَانَ جَمِيعُ الإخُوةِ حَولَهَا ، لأنَ الجَمِيعَ يَنظُرُ و التَارِيخُ يُسَجِلُ و الأجيَالُ تَشتُمُ ، و لا أحَدَ يَعتَبِر و للأسَفِ الشَدِيد ..

صَمت ،

هَذِهِ المِهنَةُ اليَومِيةُ التِي اعتَادَ العَربُ على قَضمِهَا كَلعنَةٍ أبَدِيةٍ في وَسَطِ أسلاكِهم الغَيرِ إنسَانِية..

الصَمت ، لَيسَ مِهنَةً وَحسلْ ، بَل تَصدَرت لِتَكونَ مِن أسَاسِياتِ العَقَائِدِ التي مَزّقَتِ الإخوةَ العَرب ، و جَعلتُهم أعدَاءً بَعد أن كَانَ الوَطنُ يَجمَعُهُم ، و دَارَتِ الأيَام ، و تَمزَقت الأحلام ، و ضَاعَت القَضَايَا الأسَاسِية ، و فَاضَتِ العُقُولُ بِالأوهَامِ ، فَكَانَ الجَزاءُ مِن جِنسِ العَمَل..

فَلقَد أحسَنَ الحُكَام العَرب لُعبَةَ المَكِيدةِ على الشُعُوب فَكَانَ الحَلُ الوَحِيدُ هو تَضلِيلُ الطَرِيقِ على الشَعبِ

و زَرعِ الفِتَنِ العُنصُرِيةِ و الطَائِفِيةِ بينَ أبنَاءِ التُرابِ الوَاحِدِ..

فَكُلُ مَا تَراهُ مِن مِكروبَاتٍ و فَيروسَاتٍ و أمَراضٍ عَقلِيةٍ و عَاطِفِيةٍ سَبَبهُ الصَمت ، فَالصَامِتُ عَنِ الحَقِ شَيطَانٌ أخرَس..

على هَذِهِ البُقعَةِ المُتَركِزَةِ على سَطحِ كوكَبِنَا، وُلِدَ جِيلٌ أطلَقوا على أنفُسِهم العَرب ،كَانت بُيوتُهم مَنصُوبَةٌ على أعمِدَةٍ خَشَبِيةٍ و سُقوفُهَا مَكسُوةٌ بشُعُورِ المَاعِزِ و الإبِلِ و طَعَامُهُم التَمرُ و شَرابُهُم المَاء ، وكَانوا قَبائِلَ مُتَفَرِقَةٌ تَسعَى لِجَلبِ رِزقِهَا ، و تَجوبُ كُثبانِ الرِمَالِ وكُفرَ الشَمسِ لَاهِثَةً خَلفَ سَوَاقِي المِياهِ ، فِيهِمْ مِنَ النَخوَةِ و الشَهَامَةِ و العِزةِ و الكَرمِ و مَدِ يَدِ العَونِ للقَرِيبِ و

للغَرِيبِ مَا لمْ تَسمَعَهُ في قِصَصِ الخَيالِ ، يكرَهُونَ الغَدرَ و البُخلَ و الخِيانةَ و قِلَةَ الأَمَانةِ و الظُلمَ و الجَورَ و أكلَ حُقُوقِ الضُعفَاءِ و الفُقَراءِ و المَساكِينِ و اليَتَامى..

لِكُلِ قَبِيلةٍ كَبِيرٌ يَلتَفونَ حَولَهُ ، و يُنِيخونَ هُمُومَهم و غُمُومَهُم أمَامَ أعتَابِ مَسامِعِ ، فَكَلِمَتهُ لا تُردُ ، و أمرهُ لا يُهدُ ، و نَظرَتَهُ لا تَخِيب ، و حِكمَتهُ يَرضَى بِهَا الغَرِيبُ و اللبِيب ، فَأطلَقوا على كَبِيرِهم:

شَيخاً ، أو خَلِيفَةً ، أو مَلِكًا ، أو رَئِيساً ، أو زَعِيماً ، أو قَائِداً..

و لكُلِ قَومٍ على حَسَبِ فِكرِهم أو مُعتَقَدِهم ، تَنتَهِي صَلاحِيةُ الكَبِيرِ بِعِدَةِ عَوامِلٍ و شُروط ، بِالكَذِبِ و الخِيانةِ و السَرِقَةِ و النَصبِ و الاحتِيالِ تَنتَهِي مُدَتهُ ، و لِكُلِ

قَومٍ الوَلاءُ و البَراءُ المُطلَقُ للمَكَانِ و الزمَانِ و العَادَةِ و التقَالِيدِ و القَوانِينِ الوَضعِيةِ كَانَت أم السِياسِية يَنحنُونَ لَهَا ، و يُقَاتِلونَ و يُقتَلونَ لأجَلِ عَينِهَا ، فَكَانُوا أصحَابَ حَقٍ تُرَاقُ الدِمَاءُ لأجَلِ قَضَايَاهُم ، لم تَكُن هَذِهِ النَاطِحَاتُ و التعَالِي في البُنيَانِ ، و لم يُشَاهِدُوا آبَارَ النفطِ و لَمْ يَعلموا بِأنَهُم يَفتَرِشُونَ تُراباً بَاطِنَهُ الذَهبُ و اليَاقُوتُ ، و لم تَكنْ لَدِيهِم سِيارَاتٍ و لا مَطَارَاتٍ و لا طَائِراتٍ ، و لم يُمسِكُوا يَوماً الهَواتِفَ الذَكِيةَ..

لم يَكُنْ عِندَهُم الشَرفُ نِفطاً و لا حَضَارةً و لا تَمدُناً في الحَيَاةِ الاجتمَاعِية ، على أشيَاءَ تَافِهَةً في نَظَرِك تُقَامُ الحُروبُ و تُجتَثُ الأعنَاقُ و يُسفَكُ الدَمُ العَربي بِلا مِعَادٍ..

في ذلِكَ الزمَنِ الصامِتِ كانَت تَعيشُ بَعضُ القَبائِلِ التي لَهَا صَولَةٌ و جَولَةٌ خلف كُثبانِ التاريخِ ، وكانُوا لا يَصمِتونَ على باطِلٍ ولو كَلّفَهُم ذلِكَ حَياتَهُم ، كَقَبيلَةِ تَغلِب بن وَائِل ، و قَبيلةِ بَني شَيبان ، و قَبيلةِ بكر بن وَائِل..

فَفي عَام 496 مِيلادِي اشتَعَلت حَربٌ بينَ هَذِهِ القَبائِلِ سُميت بِحَربِ البَسُوس ، فَلم تَتَطايرِ الجَماجِمُ مِن أجلِ سُلطَةٍ و لا مِن أجلِ المَالِ و لا مِن أجلِ النَفطِ ، لَقد كانت قَضيتَهُم قَضيةَ شَرفٍ وكَرامَةٍ وكِبرِياء ، فَبعدَ قَتلِ الجَسّاسِ بنِ مُرةَ الشَيبَاني البكري لكُليبِ بنِ رَبيعَةَ التَغلبي ثَأراً لِخَالتِهِ البَسُوس بِنتِ مُنقِذٍ التَميمية بَعد أن قَتَل كُليبٌ نَاقَةً كَانَت

بِجَارِهَا سَعدِ بنِ شَمس الجُرمي ، قَامَت على أثرِ هَذِهِ الحَادِثَةِ حَربٌ استَمرت أربَعِينَ سَنَة..

تَخَيّل أربَعِينَ سَنَة و لَم تُغمَدِ السَيوفُ ، و لم تَجِفَ الدِمَاءُ ، فَالحَالُ في هَذَا الزمَانِ قَد تَبدَلَ و تَحَولَ مِن سَيءٍ إلى أسوأ..

فَالحَقُ لم يَعُد يَعيشُ بيننَا..

و النَخوةُ أسدَلنا عَليهَا التُرابَ مَع جَثَامِينِ أسلافِنَا..

و الكَرامَةُ إن أحبَبتُم أن تَعرِفوا حَالَهَا اسألوا عَنهَا فِلسطِينَ..

فَالخوفُ في كُلِ مَكَانٍ يُلاحِقُنا ، و يَخُضُنَا على الصَمتِ أمَام كُلِ شَيءٍ..

عَلَيكَ أن تَصمُتَ على الذُلِ و المَهَانَةِ ، لأنَ إنسَانِيتَكَ مَسلوبَةٌ و مُغتَصَبَةٌ و مأجُورَةٌ و مُستَعبدَةٌ لِطُغَاةِ الأُمَةِ العَرَبيةِ ، فَأن تَقَرأَ عَنهُم و أن تُشَاهِدَ وَاقِعَكَ سَوفَ تَجِدُ المُفَارَقَةَ و الشيفرَةَ التي لمْ يَستَحلِهَا مَنطِقُكَ ، و لأنَ الظُلمَ قدْ بَلَغَ الحُلقُومَ فَقَدْ حاوَلَت بَعضُ الشعُوبِ العَربيةِ الخُروجَ عَن مألوفِ الصَمتِ ، فَمَاذَا حَدثَ يَا تُرى.. !

ما حَدَثَ كان كَبيراً، و أكْبَرُ مِمَا تتَصور ، لأنَ الجَلادَ الذِي يَجلسُ على أعنَاقِ الشَعبِ كَانت مَطَامِعَهُ أكبَرُ بِكَثيرٍ مِنَ الكُرسي و المَنصِبِ ، فَلمْ يَكُنِ الشَعبُ يَعلَمُ بِأنَ لهُ كِلاباً أوفِياء ، و مُجرمِينَ أقْوِياء ، فَراحَ و رَفَعَ لِعصَابَتِهِ الضوءَ الدمَوِي لِقَتلِ كُلِ مَن يَخرُجُ عن مَنهَجِهِ و

قَضِيتهِ ، فَالنتَائِجُ لَمْ تَعُد تُحصَى بِخُروجِ الأرواحِ و إِخفاءِ الجَرائِمِ تحتَ التُراب .. كلا..

بَلْ قُل كَمْ مِن قَريَةٍ نُسِفَت ! ، وكَمْ مِن مَدِينَةٍ سُحِقَت ! ، وكَمْ مِن عَائِلَةٍ هُجِّرَت ! ، وكَمْ مِن مَجزَرَةٍ اِرتُكِبَت ! ، وكَمْ مِن بَيتٍ هَوى بِمَا يَحتَوِيهِ ! ، وكَمْ مِن غَابَةٍ أُحرِقَت ، فَالعَدُ هُنَا لَيسَ بِالأشخَاصِ أوِ الأفرادِ ، لأنَ الجَرِيمَةَ خَرَجَت عَن طَورِ فَاعِلِهَا ، و الجِنَايَةُ و الإرهَابُ عَمَّ على الجَمِيعِ ، و إن لمْ تُصدَق اقرَأ قِصَةَ : كَان يا مَكَان .. كَانَ هُنَاكَ وَطنٌ اسمهُ سُورِيا .. و العِراق .. و لُبنَان .. و لِيبيَا .. و الصُومَال .. و اليَمَن..

فَالبُنَى التَحتِيةُ في هذِهِ الدُولِ بِرِعَايةِ طُغَاتِهَا ، لَمْ أعلَم بِأنَ الوَطنَ كَجسَدٍ مُشتَهى يَتنَاوَبُ عَلِيهِ السَاسَةُ العَربُ ، و على ما أظُنُ فإنَ الوَطَنَ بِحَاجَةٍ لِمَن يَحميهِ و يَغَارُ عَليهِ و يُقَدِّمُ لَهُ ، فَكَمَا كان الشَعبُ ضَحِيةً كَذلِكَ كانَ الوَطنُ المُثِير ، أضحَى خَادِماً و عَبداً مُسَاقاً إلى مَصَالِحِهم الشَخصِية..

هُوَ الصَمتُ النزَائِدُ فَقَط..

ذَلِكَ السُكُونُ الهَادِئُ الذِي يُطفِئُ الإنسانَ في داخِلِكَ..

وَحَدَهُ مَنْ يَجعلُكَ جَباناً و خَائِفاً مِنْ ذَاتِكَ و مِنَ الآخَرين و مِنَ الحَقِيقَةِ، و حَتى حَامِلو وَصَايَا الرَب أوصُوا الخَلقَ بِأن يَتَحَلوا بِالصَمتِ لا بِالصَبَرِ، مَعَ

أنَني أرى الصَمتَ و الصَبرَ كِذبَةٌ لا حِكمَة ، فَالسُكُوتُ متراكِمٌ على الحَقِيقَةِ بِكَافِةِ ألوانِ الظُلمِ. فَاعلم بِأنَ خَرِيرَ بَولِهَا سَيَصِلُ إلى عَتَبَةِ دَارِكَ يَوماً مَا ، فَرِهَانُ مَن رَاهَنوا على الصَمتِ قَد فَشِلَ ، ولَيسَ ذَلِكَ فَحسب بَلْ رَاحَ ضَحِيةً لِصَمتِهم وإصرارِهم على الخنوعِ أجيَالٌ لَمْ تَذُق طَعمَ الحَقِ و الحَقِيقَةِ يَوماً..

يَقُولون لَكَ في الصَمتِ حِكمَة..

و أقُولُ لَهُم في الصَمتِ جُبنٌ و خَوفٌ و رُكوع..

فَللأسَفِ قَدْ تَغَيرَ كُلُ شَيءٍ فِينَا ، الأجيَالُ و الهَيئَاتُ و الجِينَاتُ و المَلامِحُ و المُوضَة ، و بَقي النَحسُ الذِي يَلعَنُنَا على مَدَى الدَهرِ و العُصُورِ ألا و هُوَ العَقلُ و صَمتُهُ المُحكَم..

سَادَتي العَربُ خَاصَةً و العَالمُ عَامَةً .. بِالصَمتِ..
بِالصَمتِ طَمعَ الطَاغُوتُ في ثَرواتِنَا ، بِالصَمتِ اُستُعمِرَت البِلادُ لِخَيراتِهَا ، بِالصَمتِ حُكِمَت رِقَابُنا لِطُغاتِهَا ، بِالصَمتِ مَاتَت المسَافَاتُ ، و انقسَمَتِ الحُدُودُ ، و تَفَرقَتِ القُلوبُ ، و مَاتَ الضَمِيرُ، و احتَقَرَنَا كُلُ حَقِيرٍ ، و يكفِينا الوَاقِعُ الدَمَوِيُ و الأفواهُ المُستَعمِرةُ عَن بُعدٍ التي تَضَعُ أفواهَها في ثَدْيَي الوَطَنِ العَرِبي لامتِصَاصِ خَيرَاتِهِ ، و بِالصَمتِ وَحدَهُ أوصَلَتنا الكَلِماتُ أن نَكتُبَ دُونَ أن نَصرَخَ ..

كَلام ،

صَوتٌ يَنبعُ مِنَ الفَمِ ، لَهُ لدى ذَوي العَقولِ تَأثِيرٌ عِندَ سَمَاعِهم للكَلامِ ، فَالكَلِمَةُ تَنشَطِرُ إلى شَطرِينِ..

شَطرٌ للخَيرِ و شَطرٌ للشَرِ..

فَهُنَاكَ مَن يَرى بِأن كَلِمَةِ الخَيرِ شَراً و هُناكَ مَن يَراها العَكس ، و لا مُنازَعَةٌ لِتصحيحِ مَفَاهيمِ الكَلِمَةِ الطَيبةِ مِنَ الكَلِمَةِ الخَبِيثَةِ أمَا عَظَمَةُ الإعتِقَادِ ، فَجميعُ قَواعدِ الخَيرِ و الشَرِ تُعَدُ مَزيجاً مِن الكَلِمَاتِ ، و جُلُ قَوافِي الأمرِ و النَهي بِدَايتُها كَلِمَةٌ ، وكُلُ مَا يَخرُجُ مِن لِسانِكَ كَان مستوحَى مِن شَتَاتِ العَقلِ المَنطِقي أو رُبما اللا مَنطِقي ، فَالكَلِمَةُ هُنا بَريئَةٌ مِنْ مُجرَيَاتِ العَقلِ لِأنها

أدَاةٌ مأمورَةٌ لِتحديدِ مُستوَى المُتَكَلِمِ و لِتُثبِتَ لِلمُستَمِعِ مَاهيةَ غَبائِهِ أو ذَكائِهِ..

و لِأنَكَ في وَطنٍ مُثيرٍ للجَدَلِ .. فَيجِبُ عَليكَ أن تَكونَ حَذِراً جِداً في اختِلاطِكَ بِبني البَشَرِ الذينَ مِن حولِكَ ، هُناكَ كَلِماتٌ تَأخُذُكَ إلى الهَاوِيةِ ، و هُناكَ كلِماتٌ تُعدُكَ لِلموتِ و هُناكَ كَلِماتٌ تَهوي بِكَ في سُجونِ الأنظِمَةِ العَرَبيةِ أربَعين خَريفاً ، أما الكَلِماتُ المَسموحُ بِها فَهي مَعقودَةٌ بِالدينِ و العَادَاتِ و التَقَالِيدِ و الخُرافَاتِ فَقط..

و حَتى المَسموحُ فأنتَ مُقَيَدٌ بِهِ لِكونِكَ اِكتَسبَتَ هَذِهِ العَادَاتِ و التَقَالِيدِ و الثَقافَةِ الدِينيةِ عَن طَريقِ التَجيِّشِ الوِراثي .. فَلا مَكَانَ لِلعَقلِ أمَامَ هَذِهِ الأعَاصيرِ ، لأنَ

المَنطِقَ يُفسِدُ على رِجَالِ الدينِ و كِبارِ وجَهاءِ القَبائِلِ مَصالِحَهُم و غَطرَستَهُم ، المَنطِقُ و العَقلُ هُنَا لَيسَ مِن مَهامِ الفَردِ ، بَلْ مِن مَهامِ السَاسَةِ و رِجَالِ الدينِ و وجَهاءِ العَشائِرِ ، و أنت كَفَردٍ يَجبُ أن تَستَغني عَنِ العَقلِ في حَالِ انتِمائِكَ لأيِّ فَصيلٍ دِيني أو قَومي أو عَشائِري ، فَالسَبَبُ وَاضِحٌ لأنَ المَصلَحَةَ الشَخصيةَ لِهَؤلاءِ اللصُوصِ تَقتَضي أن تُغلِقَ أبوابَ المَنطِقِ و لَو بِالقُوةِ و السَطْوَةِ و الجَبَروتِ ، و لو أحبَبتَ أن تَبقَى على قَيدِ القَهرِ العَربي في وَطَننا المُثيرِ فَيجِبُ عَليكَ الالتِزامُ بِالتَصفيقِ و التَصفيرِ و الهُتَافِ للجَلادِ و تَستَبدِلَ الكَلِماتِ بِالأغَاني القَوميةِ و التَراتيلِ

الرَوحَانيةِ و الأنَاشِيدِ الدِينِيةِ ، فَالرِقَابُ هُنَا مَرهُونَةٌ للقَتلَةِ ، و اسمُكَ تَحتَ الرَقَابَةِ الدِينِيةِ و الوَطَنِيةِ..

إن نَاصرتَ الدِينَ ، طَبعاً و أيُ دِينٍ كَانَ ، فَقَدْ أُحتَ للآخَرِينَ مِنَ الوَطَنِيينَ و القَومِيينَ و أصحَابِ الاعتِقَادَاتِ الأُخرى برَمِيكَ بِالاتِهَامَاتِ ، سَتَعِيشُ بَقِيةَ عُمرِكَ مُلاحَقٌ و مُطَارَدٌ و مُتَهَمٌ ، سَيَأكُلُ ظَلامُ المُنفَرِدَاتِ و المُعتَقَلاتِ مِن عُمرِكَ ألَماً ، سَتَختَارُ انتِمَائَكَ الطَائِفي بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ..

و بَعدَهَا سَتنفَجِرُ عَلَيكَ التُهَمُ على حَسبِ المَقَاسِ الانتِمَائِي الذِي لَحِقتَ بِهِ عَاطِفِياً..

يا مِسكِين كَمْ أنتَ مُغَيَّبٌ عَن مَنْطِقِ العَقلِ ، وكَمْ أنتَ مُتَسِخٌ بِالعَوَاطِفِ و الخُرَافَاتِ ، أيُعقَلُ أن

تَكوي اسوِدَادَ شَعرِكَ بأوهَامٍ لا مَكَانَ لَهَا في أروِقَةِ العَقلِ.. !

مَن أنتَ ولِمن تُنسَب !؟

أنتَ في أعيُنِ جَمِيعِ مَن خَالفتَهُم اعتِقادِياً و فِكْرِياً في مَحَلِ خَبَرِ استفهَام ، و الاستفهَامُ لا يَعنِي أنَكَ بَريءٌ لا وكَلا ، بَل أنتَ مُتَهَمٌ حَتى تَتُوبَ ، و لَكِن مِما تَتوبُ ولِمَن تَتَوبُ ولمَاذَا تَتُوبُ !؟

أنتَ لا تَعرِفُ و لا تُرِيدُ أن تَعرِفَ..

التُهَمُ العَرِبيَةُ جَاهِزَةٌ تَنتَظِرُكَ ، و لا مَجَالَ لِلتفكِيرِ ، أنتَ لَكَ حُرِيةُ الانتِماءِ و الآخَرِينَ لَهُمْ حُرِيةُ التَصنِيفِ ، فَلا مَجَالَ لِلخُروجِ مِنَ الوَرطَةِ ، و عَلى

فِكرة فَهيَا فَعلتَ و دَخلتَ و خَرجتَ و انتَيتَ و تَبرّأتَ .. فأنتَ مُتَهَمٌ .. مُتَهَم ..

فقَط بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ستُصَدِدُ رِياحَ مُعَارِضِيكَ الوِجهَةَ النِهَائِيةَ لِتَصنِيفِكَ..

فأنتَ:

كَافرٌ .. مُرتَدٌ .. مُنَافِقٌ .. خَائِنٌ .. مُتَلوِنٌ .. غَدَّارٌ .. نَكَّارٌ .. لِصٌ .. مُخبِرٌ .. عَالَةٌ .. و هَلُمَّ جَراً..

و مَا أكثرَ الكَلِمَاتِ القَذِرَةِ التي لا مَجَالَ فيها لِلمُنَاقَشَةِ ، فَالنُصُوصُ لا تَسمَحُ لِلنِقَاشِ بِحُجَةِ أنَها ثَابِتَةٌ و لا تَقبَلُ التَأوِيلَ على حَسَبِ مَصَالِحِهم ، و الدستُورُ لا يُلغَى لِإنَهُ إقْرارُ الشَعبِ أو رُبمَا المَصلَحَةُ الشَخصِيةُ لَيسَ فيها نِقَاشٌ و لا جِدَالٌ..

أيُعقَلُ.. !!

أكُلُ هذَا الجُنُونِ و الانفِصَامِ العَقلي و العَاطِفي مُنتَشِرٌ بِهذِهِ الطَرِيقةِ في الوَطنِ العَربي !؟..

أي و اللهِ و رَبِ هؤلاءِ القَومِ .. بَل أكثَرُ مِمَا تَظُنُ..

فَالنِقَاشُ بِأمورِ المُسلَمَاتِ كَمَا يَعتَقِدونَ رِدَةٌ ، و الحِوارُ في قَوانِينِ الأنظِمَةِ اختِفاءٌ عَنِ الوَجُودِ ، فَأنتَ في خَلِيةٍ دَائِريَةٍ تُحَرِمُ عَليكَ الكَلِمَةَ فَكَيفَ بِالفِكْرَةِ ، فَنحنُ كَما نَحنُ نَدورُ في نَفسِ الدَائِرةِ و نَطُوفُ حَولَ الأحجَارِ منذُ آلافِ السِنِينِ ، لأنَ الحُرِيةَ غَابَت و حَلَ مَكَانَهَا الظُلمُ و الظَلامُ ، و الكَرامَةُ انعَدَمت و استَبدَلوها بِالرِقِ المُستَعَارِ و الأقنِعَةِ المُنَافِقَةِ ، فَلا مَكَانَ لِلصَوتِ فَي هَذَا الوَطَنِ الغَارِقِ بِالقَوانِينِ الخُرافِيةِ و الأسَاطِيرِ

المُلفقَةِ ، فالكلِمَةُ مُطارَدَةٌ و الفِكرَةُ رَهِينَةٌ و الصوتُ حَرامٌ حَرامٌ حَرام..

فَالمَنُوعُ مَرغُوبٌ ، و المَرغُوبُ مَمنُوعْ ،

و تَجِدُ الطُغَاةَ الذِينَ لَبِسوا لِباسَ التقوةِ و القَتَلَةَ حُكَامُ هَذِهِ الأوطَانِ ، قَد زَادُوا على الشَعوبِ قَسوَةً ، و شَدوا الوِثَاقَ على الرِقَابِ و العُقولِ و القُلوبِ ، و الذِي يُخرِجُكَ عَن طورِكَ بِأنَ قُلوبَ الطَامِعِينَ مِن سَاسَةِ الدِينِ و السُلطَانِ و الوَجَاهَةِ يكرَهُونَ بَعضَهُم و يَشتُمُونَ بَعضَهُم و يَلمِزُونَ بَعضَهُم البَعَضُ ، فَلُغَةُ الحُبِ مَفقُودَةٌ ، و إن وُجِدَت فَالمصلَحَةُ أسَاسُ المَحَبَةِ ، و إن تَبَخَرتِ المَصلَحَةُ عَادَتِ الكَراهِيةُ و التَنَاحُرُ و التَشَاجُرُ ، السؤالُ الذِي لَمْ أجِدْ لَهُ جَواباً و لا بِكَلِمَةٍ! ..

مَنِ المُستَفِيدُ الرسمِيُ لِهَذَا العَدَاءِ ؟..

و إلى أينَ سَيَصِلُ.. !

و مَا العُملَةُ التِي يَستَخدِمُهَا لَنشرِ هَذِهِ البكتِيرِيا الفِكرِيةِ بينَ الإخوة.. !

فَرُبمَا الذِي جَعلَنَا أكثَرُ بِكَثِيرٍ مِنَ الذِي يُفَرِقُنَا ، و المَقَايِيسُ العَقَدِيةِ لَهَا وَقْعٌ و تَأثِيرٌ كَبِيرٌ على المُجتَمَعِ بِشَكلٍ عَام ، و الفَهمُ الذِي وُزِّعَ و انتَشَرَ بِينَ أبنَاءِ الإيمَانِ ، و أنَا لا أُسمِيهِ إيمَاناً و إنمَا نِفَاقٌ وكَذِبٌ ، هَيَ الأشيَاءُ التِي تَتَنَاحَرُ عَلَيهَا جَمِيعُ الطَوَائِفِ السَمَاوِيةِ مِن حِقدٍ و حَسَدٍ و بُغضٍ و مَكِيدَةٍ و حَربٍ قَائِمَةٍ مُنذُ مَجِيءِ الانبياءِ والرُسُلِ السَمَاوِيين ، و لَو دَقَقتَ بِالخِلافَاتِ و

أمعنتَ النظَرَ ستَجِدُ بِأنهَا أتفهُ بِكَثِيرٍ مِمَا تتَصَور و تَعتَقِد ، فَهُنَاكَ تَساؤلانِ أوجِهُا لِطَرَفِينِ..

مَنِ المسؤولُ عَن هذَا الكَمِّ الهَائِلِ مِنَ الدِمَاءِ !؟..

هَل الآلِهَةُ ؟ .. أمْ مَن أرسَلتهُمُ الآلِهَة .. !؟

و طَبَعاً لأنَنَا مُؤمِنُونَ بِدقَةِ 250 مِيجا بِكسِل ، بِأن تُوجيهَ سُؤالٍ كَهذَا بِكُلِ هذِهِ الجُرأةِ فَقَد مُنِحَتْ أوسِمَةُ الرِدةِ و الكُفرِ بِلا جُهدٍ و لا عنَاءٍ..

هكَذَا نَحنُ عِندَنا كَمٌ هَائِلٌ مِن فَراسَةِ التَصنِيفِ و وَضعِ الشَخصِ المُنَاسَبِ على الخَازوقِ المُنَاسَبِ ، لأنَنَا بِلا حَياءٍ و بلا خَجَلٍ ، فَالكَلِمَةُ الوَقِحَةُ مَنهَجُنَا و الطَيبَةُ عَدوونَا .. هكَذا نَحنُ ..

الإسلام ،

حُرِيةٌ ، كَرامَةٌ ، و حَياةٌ سَعِيدة ،

و لكِن إن فَهِمتَ الإسلامَ بِمَنطِقِ الحَياة ، لأنَهُ مَنهَجُ حَياة ،

العَالمُ بِأسرِهِ يَعلَمُ بِأنَ الدِين هُوَ حَدٌ و قَيدٌ و خُضوعٌ لِخَالقِ الخلقِ .. و هذَا التَعرِيفُ صَحِيح و لا مَفَر مِنهُ ، فَالخَالِق لَهُ حِكمَةٌ في تَقييدكَ عنِ المنُوعِ و إفسَاحِ المجَالِ للمَسوحِ ، و الحِكمَةُ تَصُبُ في مَصلحتِكَ الشَخصِيةِ ، أمَا مصلَحَةُ الخَالِقِ فَلا يُرِيدُ مِنكَ جَزَاءً و لا شُكُوراً..

قَالوا : بِأنَ الإسلامَ هُو الإستِسلامُ و الإنقِيادُ بِطَاعَةِ أوامِرِهِ و تَركِ نَواهِيهِ..

و قَالوا : هُوَ الانقِيادُ و الخُضُوعُ و الذُلُ و يُقَالُ : أسلَمَ استَسلَمَ أي انقَادَ..

و قَالوا : هوَ الفِطرةُ السلِيمَةُ التِي فَطَرَ النَاسَ عَلِيهَا..

هَذا هُوَ الإسلَامُ بِالحَقِيقَةِ:

انقِيادٌ .. ذُلٌ .. خُضُوعٌ .. رُكُوعٌ .. سُجُودٌ .. افتِقَارٌ.

فَلَقَد قَالوا : بِأنَ الإسلَام جَاءَ لِيخُرِجَ النَاسَ مِن عِبَادَةِ العِبادِ إلى عِبَادَةِ رَبِ العِبادِ..

أي أنَّ الإسلَامَ .. جَاءَ مِن تَحرِيرِ العِبادِ ، و لَكِن سَاقَهُم إلى عِبادَةٍ أُخرى.. !

وكُلُ شَخصٍ فَهِمَ الإسلامَ على حَسَبِ مَقَاسِ عَاطِفَتِهِ و مَصلَحَتِهِ و مُبتَغَاهُ ، و الكُلُ يَدَّعِي الوَصلَ بِلَيلى و لَيلى لا تُقِرُ لَهُمْ بِوَصلِ ، فَالمُسلِمونَ اليَومَ مُصنَفُونَ و

مُنقَسِمونَ و مُتَفَرِقُونَ و مُتخاصِمون ، و لَكِن على مَاذَا يا سَادة.. !

على فهمِهِم لمُرادِ اللهِ و مُرادِ رَسولِهِ..

فَلم تَعُد رِسَالةُ مُحَمدٍ رِسَالةَ حُبٍ و عِشقٍ بينَ المَخلوقِ و الخَالقِ ، بِيدَ أَنَ عُلمَاءَ الدِينِ يُكَفِرونَ بَعضَهُم بَعضاً و يتَنَافَسونَ بإلقَاءِ التُهَمِ بِالرِدّةِ و الكُفرِ و النِفَاقِ ، رَاحَ مُنَاصِرو هَؤلاءِ المُجرِمينَ يَتنَاحَرونَ و يَتَقَاتَلونَ بِاسمِ الله و اسمِ نَبِيهم و باسمِ القُرآنِ و السُنَّةِ تُراقُ الدِمَاءُ و تُنتَصَرُ الجَمَاجِمُ و تُسَاقُ السَرِقَاتُ إلى الخَزائِنِ ، و تُجبَى الأموَالُ المَنهُوبَةُ و النِساءُ المُغتَصَبَاتِ للرِقِ و المُتعَةِ ، تَخَّيل كَم مِنَ الفِرَقِ الطَائِفيةِ دَاخِلَ الدينِ الإسلامِي.. ! ثَلاثةٌ و سَبعِينَ فِرقَةً..

ثَلاثةٌ و سَبعِينَ عَقِيدَةً مُتَشَابِكَةً ، و فَكراً سَقِيماً ، و مَنطِقاً أعوَجاً ، و أمَراضاً طَائِفِيَةً بَدَلَ أن تُخمِدَ السُيُوفَ في الأغمِدَةِ رَاحت تَتَطَاحَنُ و تَتَصَارَعُ و تَتَبارَزُ أمَامَ اللَّهِ و على مَسمعِ رَسولِ اللَّهِ ، بِلا حَياءٍ و لا خَجَلٍ ، ثَلاثةٌ و سَبعِينَ فِرقَةٍ ، كُلُ وَاحِدَةٍ مِن هَذِهِ الفِرَقِ تَشُدُ غِطَاءَ الإسلامِ نَحوَهَا ، بيدَ أنَ عَوراتِهم بائِنَةٌ ، و رَائِحَةُ دِمَائِهم ظَاهِرَةٌ ، قَد حُذِفَت مِن قُلوبِهم لُغَةُ المَحَبَةِ و الإلفَةِ ، فَالرَبُ وَاحِدٌ و النَبيُ وَاحدٌ و لَكِنَ المَطَامِعَ وَفِيرَةٌ و المَصَالِحُ كَثِيرَةٌ..

فَلَقَد قَالَ النَبيُ مُحَمَد:

اِفتَرَقَتِ اليَهودُ على إحدى و سَبعِينَ فِرقَةٍ ، و افتَرَقَتِ النَصَارى على اِثنَتَينِ و سَبعِينَ فِرقَةٍ ، و

ستفترق هذه الأمة على ثلاث و سبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة ، قيل ما هي يا رسول الله ؟

قال :من كان على مثل ما أنا عليه و أصحابي..

انتهى الحديث.

و لكن السيوف و السب و الشتم و التصنيف لم ينتهي ، فعندما قال ستفترق أمتي .. تعني أمة التبليغ لا أمة الاستجابة ، فأمة التبليغ هم كل الناس الذين يملؤون رحاب الأرض بعد بعثة النبي محمد ، و من المعلوم بأنهم ينتمون إلى مذاهب و أديان شتى ، و الإسلام واحد منها ، على رأي أحدهم..

من المؤسف بأن يصنف البشر على هذا الكوكب بالخلود في النار أو التنعم بالجنان ، فالأمر بيد

اللَّهِ فقط ، و حُبُ اللَّهِ لِمَن خَلَقَ هُوَ أعلمُ بِهم و لُغَةُ التصنِيفِ و التفرِيقِ لَنْ تُوحِدَ صفاً و لَنْ تَجمَع كَلِمَةً و لَنْ تُؤَلِّفَ قَلباً و لَنْ تَنشُرَ حُباً لِإنَ اللَّهَ عِندمَا أرسَلَ:

مُحَمَد ، و عِيسَى ، و مُوسى ، و إبرَاهِيم ، و يحيى..

أرسَلَهُم بِلُغَةِ الحُبِ و العِشقِ ، فَمن فَهِمَ اللَّهَ بِغِيرِ هَذِهِ اللُغَةِ فَقَدْ ضَلَّ و ضَاع ، فَلَقَد وُجِدَت لُغَةُ المَوتِ و الحَربِ و الدِمَاءِ و التَهدِيدِ و الوَعِيدِ عِندَمَا عَمَّ الفَسادُ و أضحَتِ المَصلَحَةُ الخَاصَةُ مُقَدَمَةً على المَصلَحَةِ العَامَةِ ، و غَابَ العَدلُ لِيحِلَ مَكَانَهُ الظُلمُ و الظَلام ، فَحَالُ مَن نَسَبوا أنفُسَهُم إلى دِينِ الإسلامِ لا يُبَشِرُ بِخَيرٍ البَتَةَ ، و

هَذهِ النِسبَةُ العَالِيَةُ بِالأرقَامِ الفَاسِدَةِ لا بِالأفعَالِ الصَالِحَةِ هِيَ فِي الوَطنِ العَربي..

الرِشوة .. الغَدر .. الحِقد .. الحَسَد .. القَتل .. المُخدَّرات .. الحَشِيشَة .. السَرِقَة .. الاغتِصَاب .. فسَادُ الأنظِمَةِ .. فَسَادُ الشَعبِ .. الفَسَادُ الاقتِصَادي .. الفَسَادُ السِياسِي .. الفَسَادُ الاجتمَاعِي .. الفَسَادُ الأخلاقِي .. الفَسادُ التَعلِيمِي .. الفسَادُ الطَائِفِي .. الفَسادُ التَربَوي..

إذا أمعَنتَ جَيداً في هَذهِ التَفَاصِيلِ ، و فَكّرتَ بِهَا بِصوتٍ عَالٍ ، و رَأيتَ بِأنَ المُجتَمَعَاتِ المُتَطفِلَةِ على الإسلامِ تَنتَشِرُ بِجهلٍ و جَاهِلِيَةٍ عَمياء ، و نَشَرَت

غَسِيلهَا المُتَسِخَ ، سَوفَ يَخرُجُ لَكَ أحدُ الإمعَاتِ لِيقُول لَكَ:

نَحنُ خَيرُ أُمَةٍ أُخرِجَت للنَاس..

المَنطِقُ الإلَهِيُ يَردُ عَلَيهِ قَائِلاً كَمَا جَاءَ في القُرآنِ:

كُنتُم خَيرَ أُمَةٍ أُخرِجَت للنَاسِ تَأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ و تَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ و تُؤمِنُونَ بِاللهِ..

نَعَم كُنتُم .. وكَانَ كَمَا تَعلم فِعلُ مَاضٍ نَاقِصٍ..

هُوَ نَاقِصٌ مِن الحُبِ و العِشقِ و السَلَامِ و الأمَانِ و العَيشِ بِحُرِيةٍ وكَرامَةٍ وكَفِ الألسُنِ عَنِ الخَلقِ و إلقَاءِ السُيوفِ و تَجفِيفِ الدمَاءِ و التَوبَةِ إلى عَدمِ العَودَةِ لِلقَتْلِ و الذَبْحِ و التَكفِيرِ و التَصنِيفِ..

نَحنُ نَاقِصُونَ بِكُلِ شَيءٍ و مِن كُلِ شَيءٍ..

و اللَّهِ إنَ الوَاقِع و مُجرَيَاتِهِ و تَحدِياتِهِ لا تُبَشِرُ بِخَيرٍ ، نَحنُ أُمَةٌ مَعقُودٌ نَاصِيَتُها بِالتَارِيخِ و المَاضِي الذي نَتَفَاخَرُ بِدِمَائِهِ و مَجَازِرِهِ ، مُتنَاسِينَ إنسَانِيَتَنَا و أَخلَاقَنَا البَدَوِيةَ و تَسامُحَنَا و طِيبَتَنَا العَرَبِيةَ ، و أمَا المُستَقبَلُ فَمعقُودٌ بِعُلَمَاءِ الأبْرَاجِ و النُجُومِ و السَحرَةِ و الخُرافَاتِ و عَلامَاتِ السَاعَةِ و هُلُمَ جَراً..

لا أعلَمُ مَا الذِي نَنتَظِرُهُ ، و أعلَمُ بِأَننَا لا نَنتَظِرُ شَيئاً سِوى المَوتِ على مَقَاعِدِ الخَيبَةِ و الفَسَادِ..

الإسلامُ مَنهَجٌ لِمَحبَةِ الإنسَانِ لأخِيهِ الإنسَانِ ، و طَرِيقٌ مُستَقِيمٌ لبنَاءِ مُجتَمعٍ يَحتَرِمُ بَعضَهُ بعضاً ، و فُرصَةٌ للحَضَارَةِ و الرُقِي و إعمَارِ الأرضِ بِالعِلمِ و الإبدَاعِ ، و لَكِنَ هَذِهِ

الرائحةَ التي فَرَّقَت مَا يُسمَى بِأشباهِ المُسلِمِينَ في وَاقِعنَا يُخَالِف كَلامَ النَبِي مُحَمَدٍ عِندمَا قالَ:

المُسلمُ مَن سَلِمَ المُسلِمونَ مِن لِسانِهِ و يَدِهِ..

فَتعَالَ إلى أروِقَةِ القَضَاءِ و دُورِ العَدّلِ في الدُولِ التي تَتَبجحُ بِدِفاعِهَا عَنِ الإسلامِ ، و طَبعاً الإسلامُ بَرِيءٌ و لَكِنَهم هُمُ الجُنَاةُ و المُجرِمون..

مِصر بَلَدُ الأزهَرِ الشَرِيفِ ، 60 مِليون مَصري في المحاكِم ، و القَضَاءُ يَنظُرُ في 13 مَليون قَضِيةٍ جِنَائِيةٍ..

السعُودِية أرضُ الحَرَمَينِ الشَرِيفَينِ ، المحاكِمُ الجَزائِيَةُ السعُودِيةُ تَنظُرُ في 61711 قَضِية .. خَلالَ خَمسَةِ شُهُورٍ.

الأُردُنُ أرضُ آلِ بَيتِ رَسولِ اللهِ مِنَ السُلالَةِ الهَاشِمِيَةِ ، في اسبُوعٍ وَاحِدٍ تَمَّ إِلقَاءُ القَبضِ على أكثَرِ مِن 1300 مُتَهم في قَضَايَا جِنَائِية..

أيُهَا العَالَمُ الإسلاميُّ : مَا الذِي يَحدُثُ على أرضِكَ.. !

الجَهل ،

جَهلُنَا بالأشياءِ لَيسَت مِحنَةً ، بَل مِنحَةً وَهبنَاهَا لإنفُسِنَا و بينَ المِحنِ و المِنَحِ تَغفو على أرِيكَةِ الوَطنِ طَامَةٌ كُبرى تُدعَى الجَهل ، لَن أتَحَدَثَ لَكَ عَنِ الأسبَابِ لأنَ جَدي قَالَ عَنهَا:

(و الله يا يَابا ضَاعت الطَاسة..)

و المُجَريات التي نَرَاهَا على السَاحَةِ الوَاقِعِيةِ تَقولُ:

الطَاسَةُ و صَاحِبُهَا و أبا صَاحِبها قَد ضَاعَ ، و إن وُجِدَت فَإنهَا ستَكُونُ مُعجِزَةً عُظمَى ، لأننَا في أبَسَطِ الأمُورِ نَأخُذُهَا مَأخَذَ الرَجُلِ اللبِيبِ الذِي يَعلَمُ بِكُلِ شَيءٍ ، و حَتى بِفَسَافِسهَا و ايجَابِيتِهَا و سَلبِيتِهَا..

على سَبِيلِ المِثَالِ ، و بِينَ جَدٍ و مِزَاحٍ ، لَو طَرَحَتَ سُؤالاً في أيِ عِلمٍ مِنَ العُلومِ و خُصُوصاً فِيمَا يَخُصُ الدِينَ على عَامَةِ النَاسِ أو على الخَاصَةِ..

فَيا ميّتة هَلا بِالفَتَاوى الطَازَجَةِ و الأهوَاءِ المُعَلبَةِ و الخُرافَاتِ المُبَستَرَةِ ، فَعَليكَ أن تَستَمِعَ و تُنصِتَ ، و بِالأخَصِ إن سَألتَ هَذَا السُؤالَ في جَمعٍ غَفِيرٍ مِنَ الرِجَالِ أو في دَارِ عَزَاءٍ للنِسَاءِ ، أُقسِمُ لَكَ بِأنَكَ سَتَرَى العَجَبَ العُجَابَ..

لَو كَانَتِ القَضِيَةُ بِالسُؤالِ ، لأوضَحتُهُ بِصِيغَةٍ أُخرَى و بِلحَنٍ آخَر و بِلَهجَةٍ نَاعِمَةٍ .. و لَكِنَ المَسألَةَ لَيسَت في مَاهِيةِ السُؤالِ و لا في رُدودِ الأفعَالِ ، بل بِمَن يَجلِسُ

في حَضَرةِ السؤالِ مِن لَفِيفِ القُومِ ، أولُ شَيءٍ سَتُلاحِظُهُ:

أنَكَ أطلَقتَ سؤَالكَ لَرجُلٍ مُعَينٍ ، صَاحِبَ عِلمٍ مُعَينٍ ، أفنَى حَيَاتَهُ في ذاكَ العِلمِ المُعَينِ .. أي أنَ هَذَا الشَخصَ هُوَ مَن سَيُجِيبُ عَن سؤَالِكَ الذِي يَحتَاجُ لاستخرَاجِهِ مِن دِمَاغِ المَسؤولِ عَنهُ في بَعضِ أجزَاءٍ مِنَ الثَانِيةِ..

هُنَا و أمَامَ هَذَا المَوقِفِ المُبَعثَرِ بِالجَهلَةِ و المُتَطفِلينَ سَينتَفِضُ جَمِيعُ مَن في المَجلسِ بِكَافَةِ اختِصَاصَاتِهم لإبدَاءِ رَأيهم و أجوِبَتِهم التي تُشبِهُ وِعَاءَ السَلطَةِ..

و الكَارِثَةُ العُظمَى بِأنَ المُنصِتَ هُوَ أنَا أو رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنَ الحُضُورِ ، و المُتَحدِثُ هُوَ ذَلِكَ الجَمعُ المَصُونُ بِقِلَةِ الأدَبِ و التَحرُشِ و التَطَاوُلِ أمَامَ المُستَفتَى..

هَذَا هُوَ فَنُ أغلبِ المَجَالِسِ العَرَبِيةِ ، مَنحَنا الجَهلُ مِنهَا قِطعَةٌ مِن قِلَةِ الأدَبِ و التَعَدِي على اختِصَاصَاتِ الآخَرِينَ..

و إن أجَابَكَ الذِي وَجهَتَ إلِيهِ السؤَالَ ، سَيقفِزُ لكَ رُوبِيضَةٌ مُتَطَفِلٌ مُقَاطِعاً دَربَ الإجَابَةِ قَائِلاً:

و الله يا أستَاذ أنَا رَأيِي كَذَا وكَذَا..

يَا أخِي و مَن سألَكَ عَن رَأيِكَ.. !!

يَا صَدِيقِي 90٪ مِنَ الشُعُوبِ العَرَبِيَةِ فَشِلَت بِوَاقِعِيةِ التَخَصُصِ ، لأنَ الجَهَلَةَ و المُتَطفِلِينَ على أهلِ العَلمِ و

الفَضَلِ لم يَترُكُوا للإنصَافِ حَيّزاً و لا مَنفَساً للسَادَةِ الذِينَ أهدَروا أعمَارَهُم خَلفَ مَقاعِدِ الدِراسَةِ..

هَذِهِ الفِئَة مِنَ المُتَسلقِين ، قَد أعطَتهُم جَامِعَات الحَياة شَهَادَاتٍ و أوسِمَة و دُروع للمُؤسِس المُلَقَب:

بأبو العُرِّيف ..

هَنِيئاً للأُمَةِ و لِلقَادَةِ و المُؤسَسِين بِهَذِهِ العَينَةِ مِنَ الحِشَرِيينَ ، و طَوابِيرَ مُكَدَسَةٍ مِنَ الشُبَانِ و الفَتَيَةِ و الإنَاثِ يَجُوبُونَ الشَوارِعَ بِخَيبَاتِهِم و انكِسَارَاتِهِم ، و يُسنِدونَ ثَدَمُرَهُم و تَعَاسَتَهم في المَقَاهِي العَامَةِ..

هُوَ الوَقتُ وَحدَهُ مَن يُمَزِقَهُم و يَشطِرَهُم و يَسحَقُهم و يَجعلُهم رَمَاداً و يَنفُثَهُم كَغُبَارِ الطَلعِ بِينَ أزِقَةِ الوَطَنِ و

طُرُقَاتِهِ ، أهوَ اهتِمَامٌ بِالنَفسِ أمْ إهدَارٌ للعُمرِ أمْ إضَاعَةٌ للزمَنِ.. !!

فَأنتَ .. و لأنَكَ أنتَ فَلا تَعلمُ مَا الذِي يَجري.. !

الجَهلُ مُؤامَرَةٌ عُظمَى ، مُحَاكَةٌ بِإتقَانِ بُومَةٍ و حِنكَةِ أفعَى و مَكرِ ثَعلب ، هَذِهِ المَسَاحَةُ الشَاسِعَةُ التي تَمتَدُ و تَمتَدُ و تَمتَدُ بِكَافَةِ ضَبابِهَا و سُمُومِهَا لتَضعَ مَخَالِبهَا على أكبَرِ عَدَدٍ مُمكِنٍ في الوَطنِ العَرَبي ، أسبَابُهَا كَثِيرَةٌ و الجَانِي مَن أمَرَ بَطشَهُ علَينَا و الضَحِيةُ شُعُوبٌ فَارِغَةٌ مِن كُلِ شَيءٍ حَتى مِنَ الكَرَامَةِ..

الوَهمُ .. و الوُعُودُ .. و القَسَمُ..

هَذِهِ الأشيَاءُ التَي أحكَمَت خِنَاقَنا ، و أغلَقَت كَافَةَ مَنَافِذِ العِلمِ و الحِكمَةِ و الأدَبِ ، فَدَائِماً العَاطِفَةُ العَرَبِيةُ تُحتِمُ

عَلِينَا تَصدِيقَ كُلِ شَيءٍ ، و مِنهَا الوهَمُ العَظِيمُ الذِي كُنَا نَحلُمُ بِهِ كأُمَةٍ عَرَبيةٍ يَحُدُهَا العِلمُ و الانفِتَاحُ عَلى العَالمِ المُتَحَضِرِ ، و الوَعودُ التِي صَفّقنَا لهَا مُنذُ خَمسَةِ عُقُودٍ و لا زِلنَا نُصَفِقُ و نَهتُفُ لهَا حَتى أضحَت عَقِيدَتَنَا و دِينَنَا و دُستُورَنَا ، و القَسمُ تِلكَ النَكسَةُ العَرَبيةُ عِندمَا وَضَعَتِ التَمَاسِيحُ أيادِيهَا المُلطَخَةِ

بِالجَرائِمِ على الكِتَابِ المُقَدَسِ و أقسَمت أن تَصُونَ الوَطنَ و تَكُن العَينَ السَاهِرَةَ على مَصَالِحِ و مُتَطلبَاتِ الشَعبِ ، و أن تَحمِي و تَحفظ حُقُوقَ و مُقدّراتِ الأرضِ ، و أن تُغرِقَ العُقُولَ بِالعَلمِ و أن تُحَارِبَ الجَهلَ بِكَافَةِ وَسَائِلِهِ .. رُحنا كفِراخِ الدَجَاجِ فَرِحِينَ بِالعَلفِ الذِي قُدِمَ لَنَا ، و لَكَأنَهُم نَقَلونَا مِن كُوخٍ رِيفِي إلى مِدجَنَةٍ لِكِبارِ

دَجَاجَاتِ القَوم ، فَمَا كَانَ مِن صَاحِبِ القَسَمِ إلا أن سَلَّ سِكِينَهُ و رَاحَ ينحَرُنَا و يسلَخُنَا و يسحَقُنَا..

فَالمَثَل الشَعبِيُ المَشهُورُ يَقول:

قَالوا للحَرامِي أقسم بِأنَكَ لَمْ تَسرِق..

قَالَ في نَفسِهِ : هَا قد جَاء الفَرج..

لَقد وَقعنَا في شِباكِهم ، و سَلبُوا مِنَا رَحِيقَ خَيراتِنَا ، و نَحَروا رُؤوسَ العُلمَاءِ بِكَافَةِ اختِصَاصَاتِهِم ، و رَأّسوا عَلينَا جَمَاجِمَ جُهَالٍ فَأفتُوا بِغَيرِ عِلمٍ ، فَضَلّوا و أضَلّوا..

هِيَ الأنظِمَةُ العَرَبِيَةُ وَحدَهَا ، و مَعَ شُرَكَاءِ الجَهلِ و الضَلَالِ مِن حُكّامِهَا و مُلُوكِهَا و حُواشِيهَا مَن أعدَت للوَطنِ العَربي مُتكَئً للتَخلُفِ و الرِدَةِ ، فَكَانَت الخُطَةُ مُحكَمَةٌ وِفقَ المَعَايِيرِ الدُولِيةِ للسَرِقَةِ و النَهبِ و

النَصبِ و استِبدَالِ الصَالِحِ بِالفَاسِدِ و النُهُوضِ بِجِيلٍ لا يَعرِفُ مِن التِكنِلوجِيا سِوىَ المَواقِعِ الإبَاحِيَةِ و بَرامِجِ الغِنَاءِ و الطَربِ..

فَبِسَبَبِ الكَبْتِ النَفْسيّ ، و إصدَارِ الأحكَامِ و القَوانِينِ الفَاسِدَةِ ، و حَدِ الحُدودِ التَعسُفِيَةِ التِي تُغلِقُ كُافَةَ الحُرِيات، رَاحَ الشَبَابُ العَرَبيُ يُفَتِشُ و يُنَقّبُ عَنِ البَدَائِلِ ، و لإخمَادِ كُلِ مَا مُنِعَ مِنهُم ، و ابَسَطُ مِثَالٍ التَحرُشُ و الشَرَهُ الجِنسِيُ فِي وَطَنِنَا السكْسي:

تَقُولُ صَحِيفَةُ وَاشنطُن بُوستْ : أنَّ مِصرَ أسوَءُ دَولَةٍ في العَالَمِ مِن نَاحِيةِ التَحرُشِ بِالنِسَاءِ ، و تَقَولُ دِراسَاتٌ تَابِعَةٌ لِحُقُوقِ المَرأةِ عَنِ التَحرُشِ الجِنسِي أنَّ 83٪ مِنَ النِسَاءِ يَتَعرضَّنَ لِشَكلٍ مِن أشكَالِ التَحرُشِ ، و

64٪ مِنهُنَّ يَتعَرضَّنَ للتَحرُشِ بِصِفَةٍ يَومِيَةٍ ، و 33٪ يَتعَرضَّنَ للتَحرُشِ أكثَرَ مِن مَرَةٍ و لَيسَ بِصِفَةٍ دَائِمَةٍ..

و للسُعُودِية نَصيبٌ في عَالمِ التَحرُشِ ، تَقُولُ دِرَاسَاتٌ لِوكَالَةِ رويترز عامَ 2010 فِيمَا يَخصُ التَحرُشَ الجِنسيَ بِمواقِعِ العَملِ ، بِأنَهُ تَمَّ الكَشفُ عَن أنَّ السُعُودِيَةَ تَحتَلُ المَركَزَ الثَالِثَ مِن بِينِ الدُولِ، 24 دَولَةَ شَملتهَا الدِراسة و 12 ألف امرَأة شَملتهَا العَيِّنَةُ، و هِيَ بِذلكَ تَتَخطىّ النِسبَةَ في الوِلايَاتِ المُتَحِدَةِ و فَرنسَا و ايطَاليَا و بريطَانِيا و سبَانيا..

هَذَا جُزءٌ يُعَادِلُ 1٪ مِنَ الحُرِيّاتِ ، فَمَا بَالُكَ بِنِظَامِ التَعلِيمِ و الإرشَادِ و تَقنِينِ الأحكَامِ و العَادَاتِ و التَقَالِيدِ و الأدِيانِ و الفَسَادِ السِياسِي و الاجتمَاعِي و الاقتِصادِي ، و

كُلُ شَيءٍ بِكَفتِهِ و و ولاتُ الأمورِ مِن الحُكّامِ الفَاسِدِينَ و أبنَائِهم الذِينَ سَيَرِثونَنَا مِن بَعدِهم بِكَفَتِهِ أُخرى .. لا تَقُل لِي بِأَننَا أُمَتٌ لا تَمُتُ لِلجَهلِ بِصِلَتِهِ .. حَذَارِي حَذَارِي . !

حُدُود...

نِهَايَةُ الأشياءِ المَسمُوحِ بِتَخطِيهَا، فَلو دُستَ بِقدَمِكَ أو بعَاطِفَتِكَ أو بِحُرِيَتِكَ أو بِفِكرِكَ تِلكَ الخُطوطُ الوَهمِيةُ فَلَكَ مع المَصَائِبِ مِيعَادٌ يَليقُ بِالذَنبِ الذِي اقتَرَفتَهُ ، طَبعاً النَوايا لَيسَ لَهَا مَكَانٌ و لا عَدمُ الإقبَالِ لِلتخَطِي شَفَا الحُدودَ ، لأنَ المُجتَمَعَ الذِي نَعيشُهُ و يَعيشُ فِينَا لَهُ الظَاهِرُ و الله يَتولى السَرائِرَ ، لو دَقَقتَ في المَنَافِذِ التِي تُرِيدُ الفِرارَ مِنهَا سَتَجِدُ بِأنَكَ وَقعتَ في حَاوِيَةٍ مِنَ الخُيوطِ المُعَقَدَةِ التي لن تَخرُجَ مِن تَشَابُكِهَا و لا بالأحلامِ..

أنتَ كَإنسَانٍ عِبارةٌ عَن كُتلَةٍ تَحُدُهَا أجزَاءٌ في دَاخِلِ و خَارِجِ جَسدِكَ يَصعُبُ تَخطِيها ، لو أنَ البَولَ يَجري

مَعَ الدمِ لمَا عَاشَ الإنسَانُ ، و لكنَ للخَالقِ حِكمَةٌ في كُلِ شَيءٍ ، جَعَلَ لِكُلِ مَادةٍ سَائِلَةٍ و صَلبَةٍ مَجرى لهَا و قَنواتٍ لِلضَخِ و الصَبِ ، وكُلٌ يَعرِفُ مَسَارَهُ و دَورانَهُ ، فَلا جُزءٌ يَتعَدى على الآخَرِ، لَيسَ خَوفاً و لا رُعباً ، و إنمَا نِظَامٌ طِينَتُهُ مَجبُولةٌ على مَسارٍ مُعَينٍ و وِجهةٍ مُعَينَةٍ فَتبَارَكَ اللهُ أحسَنُ الخَالِقِين..

و لِلبيوتِ حُدودٌ تَقسِمُهَا الجُدرانُ بِمَسَاحَاتٍ صَغِيرَةٍ ، و مَمَراتٍ ضَيقَةٍ ، شَيءٌ لِلنَومِ و شَيءٌ لِلطَعَامِ و شَيءٌ لِلجُلُوسِ و شَيءٌ لِلضُيُوفِ و بيتٌ لِلخَلاءِ و بيتٌ لِلاستِحمَامِ وكُلُهَا حُدودٌ وضِعَت لِخدمَةِ الإنسَانِ و إقَامَةِ مُؤسَسَةٍ دَاخِليةٍ في قلبِ بيتِهِ ، الأبُ أو الأُمُ المُتَحكِمُ و المُتَصرِفُ الوَحِيدُ في دَاخِلِ حِمَاهِمَا ، و مَا دُونَ ذَلِكَ

فلِلنَاسِ الحُرِيَةُ بِأي شَيءٍ بِشَرطِ أن لا أحَدَ يَمُسُ بِنِظَامِ البيتِ الدَاخِلِيِّ..

و لِلمَدارسِ و الجَامِعَاتِ نَصِيبٌ في نِظَامِهِم الدَاخِلي ، هَذِهِ المُؤسَسَاتُ التي تُصَدرُ الأخصَائِيين مِن حَمَلَةِ الشَهَادَاتِ و الأدمِغَةِ تَحُدُهَا حُدودٌ في حَرَمِ العِلمِ و التَعلِيمِ ، مَسَاحَةٌ ضَخمَةٌ بِقَاعَاتٍ كَبِيرَةٍ و مَمَراتٍ عَرِيضَةٍ و نَوافِذُ شَاسِعَةٍ و أبوَابٍ مُوصَدَةٍ و رُعبٌ رَهِيبٌ و خَوفٌ لا يُوصَفُ ..

و الظُلمُ لَهُ حُدودٌ و العَدلُ كُذلِكَ..

وَحدَهَا الآلِهَةُ مَن تُرسِلُ لِلبَشَرِيَةِ حُدوداً و قَوانِيناً و دَسَاتِيراً لِتَرفَعَ مَوجَةَ الفَسَادِ العَقَائِدِي عَن طَرِيقِهَا ، لَيسَ حُبَاً بِإصدَارِ القَوانِينِ كلاّ ،بَلِ المَقصُودُ بِسَنِ القَوانِينِ

و إرسَالهَا عَبرَ الرُسُلِ و القِدِيسِينَ لِضَبطِ إيقَاعِ التَرِدِي العَقَدِي و الفَسادِ الدَاخِلي..

فَالحُدودُ تَختَلِفُ سَماوِياً و جُغرافِياً و عُرفِياً..

لِكُلِ رِسالَةٍ رَبَانِيَةٍ حُدود و لِكُلِ وَطَنٍ خَطُ استِواء و لِكُلِ شَعبٍ نِظَامٌ و لِكُلِ قَبِيلَةٍ عَادَاتٍ و تَقَالِيد ، و كُلُ شَيءٍ زَادَ عَن حَدِهِ انقَلبَ ضِدَهُ ، و جَعلَ مِن صَتَتِهِ ثَورَةً و حَرباً ، لأنَ لِكُلِ إنسَانٍ طَاقَةٌ مُعَينَةٌ مِنَ الصَبرِ و التَحمُلِ و كَذلِكَ الأوطَانُ و كَذلِكَ القُلوبُ ، فَإن زَادَ على الحَوضِ المُتَلي بِالمَاءِ كَأساً ، فَاضَ مِن جَنَباتِهِ غَضَباً و إن زَادَ في إطَارِ السِيارَةِ هَواءٌ انفَجرَ و رَجَ الكُونَ صَخَباً و إن زَادَ الحَاكِمُ على الشَعبِ ظُلماً و جُوراً قَامَ مَوجُ الشَعبِ غَضَباً ، لِلفَردِ حُدودَهُ بِالصَبرِ و لِلمُجتمعِ حُدودَهُ

بِالتَحَلُلِ ، فَالحُدودُ لَيسَت بِكِثرتِهَا إنمَا بِحكمَتِهَا و عَدلِهَا..

مَا معنَى أن تَفرِضَ عَليَّ قُيودَكَ و أحكَامَكَ و أنَا المُخَيَّرُ فِيمَا يَجري مِن مُحدَثَاتِ حَيَاتِي و أنَا الذِي سَأتَحَملُ مَا جَنتهُ يَدَايَ إن كَانَت هَذِهِ الجِنَايَةُ سَأتحَمَلُهَا أنَا.. !!

أنَا كَمُوَاطِنٍ عَرَبِي مَخنُوقٌ حَتى الموتِ..

دِراسَةٌ و أتمَمتُ ، و وَطنِيةٌ و قَومِيةٌ تَلقِيتُ ، و على دِينِ آبائِي تَربيتُ ، و مِن وَاحَةِ القَبِيلَةِ تَضَلّعَتُ و على العَادَاتِ و التقَالِيدِ تَرعرَعتُ ، أخبرني بِحَقِ السَمَاءِ أينَ هُوَ ذَنبَكَ الخَطأُ الذِي ارتَكَبْتُ..!!

لا وَظِيفَةٌ و لا مَالٌ و لا جَاهٌ و لا عَائِلَةٌ و لا استِقرَارٌ و لا حُرِيةٌ فِكرِيةٌ و لا حُرِيةٌ ثَقَافِيَةٌ و لا دِينِيَةٌ و لا سِيَاسِيَةٌ ،

مَخنُوقٌ حَتى الموتِ ، مُكبلٌ بِالحُدودِ ، بِحُدودِ الله و بِالحرامِ و الحَلالِ ، و بِالعَادَاتِ و التقَاليدِ و العَيبِ و الشَهَامَةِ ، و بِالقَبَلِيَةِ و بنَخوَتِهَا و عِفتِهَا و تَحجُرِهَا ، و بِالوَطنِيَةِ و بِمسِيراتِهَا و احتِجَاجَاتِهَا و مَنعِهَا و قُبُولِهَا و رَفضِهَا ، مُتشابكٌ بِحُدودِ وَطنٍ لا يَعتَرِفُ إلا بأولادِ الحَرامِ مِن المُترفِينَ بأموالِ الرَعِيَةِ ، تَخَيل بِأننَا رَعيَةٌ و عِبادٌ و مُنسَاقُونَ و وطَنِيونَ و منسُوبُونَ و مُنصَاعُونَ و مُنقَادُونَ مِن نُحُورِنَا إلى المَوتِ فَلا دُنيا تُلائِمُنَا و لا آخِرةٌ رَضِيت بِنَا ، نُرَمِمُ ما انهَالَ عَلى ضَعفِنَا مِن حُدُودٍ سَمَاوِيَةٍ و حُدودٍ وَضعِيَةٍ بِالأحلامِ ، و حَتى الأحلامُ لَهَا حُدودٌ و الجُدرانُ لَهَا آذَانٌ ، فَالصَمتُ الصَمتُ أيهُا العَرَبِيُ..

اثنَانِ و عِشرونَ دَولَةً عَرَبِيَةً..

أنَا أقولُ لَكَ عَرَبِيَةً ، ركّز مَعي .. تَخَيَل أنّ المُواطِنَ الأُردُنيّ أرَادَ السَفَرَ إلى السعُودِيةِ أو إلى الإمَاراتِ فَإنَهُ بِحَاجَةٍ إلى فِيزا سَفَر ، و رُبمَا يأخُذ الفِيزا و رُبمَا لن يأخُذهَا ، بينمَا المُواطِنُ الغَربيُ يدخُلُ هَذهِ الدُولَ بِلا تأشِيرَةِ سَفَر ، و يُستَقبَلُ بِجنَاحٍ خاصٍ بِحُجَةِ أنَهُ سائِحٌ ، مِمَا جَعلَ هَذهِ التَصرُفَاتِ تُشعِلُ فَتِيلَ الكَراهِيَةِ بِسَبَبِ العُنصُرِيَةِ و التَمييزِ الذِي تَخُدُهُ حُدودُ الكَذِبِ و النِفَاقِ ، اثنَانِ و عُشرونَ دَولَةً عَربيةً لا تَجمَعُهم سِوى قُبَةُ الجَامِعَةِ العَربيَةِ كَمَا قَالَ المُجرمُ مُعَمَّر القَذَافي ، أوطَانٌ مُنتَفِخَةٌ بِالبِترولِ تَذهبُ خَيراتُهَا إلى أميريكَا و تُلقَى الأطعِمَةُ بِالهَبلِ و يَتَفَاخَرُ مُواطِنُوهَا بِالبذخِ و الإسرافِ و التَعَالِي بِالبُنيانِ ، بيدَ أنَ الدَولَةَ الشَقِيقَةَ تَمُدُ يَدَهَا

للغَريبِ و للقَريبِ قِيادةً و شَعباً لَتسُدُ جُوعَهَا و تَحفظ كَرامَتهَا ، أيةُ عروبَةٍ هذهِ و أيَةُ أُخوةٍ التي ظَهَرت عَوراتِهَا و تَطَاحَنت و تَضَارَبت و رَفَعت على بَعضِهَا لِواءَ العَدَاءِ و الكَراهِيَةِ و القَبَلِيَةِ ، مَعَ أنَ دِينَهَا وَاحِدٌ وكِتَابُهَا وَاحِدٌ و نَبيُهَا وَاحِدٌ و لُغَتُهَا وَاحِدَةٌ ، فَوارِقُ كَاذِبَةٌ و جِيرانٌ مُنَافِقون و نَظَراتٌ لاسِعَةٌ و أحقَادٌ مُكدَسَةٌ بِالقُلوبِ و السُمُومُ تَنتَشِرُ لَيلاً نَهَاراً و تَهطِلُ كَبِياتُ الفَسَادِ و الاستبدَادِ كَالصَواعِقِ مِن كُلِ حَدبٍ و صَوبٍ..

مَا الفَارِقُ بِينَ السُعُودِيةِ و اليَمَنِ!

مَا الفارِقُ بِينَ الكوِيتِ و العِراقِ!

مَا الفارِقُ بِينَ قَطَر و الإمَارات!

مَا الفارِقُ بِينَ سورِيا و الأردُن!

مَا الفَارِقُ بِينَ المَغرِبِ و الجَزائِرِ!

مَا الفَارِقُ بِينَ فِلسطِينَ و لُبنَان!

مَا الفَارِقُ بِينَ مِصرِ و لِيبيا!

سأقول لَكَ مَا هُوَ الفَارقُ و مَا القَاسِمُ المُشتَرَكُ الذِي يَجمعُنَا ، لا أعلَمُ إن كَانَ الله مَن فَرقَنَا أمْ فَهمُنَا عَن الله ، طَبعاً لا يَهُم لأنَنَا تَفرقنَا و الفَضلُ لإسرائِيل ، الفَارِقُ هُوَ الجُوعُ و القَهرُ و التَمييزُ و العُنصُرِيَةُ و الطَائِفِيَةُ و الفَسادُ الأخلاقِي و الخُلُقي و النَهبُ و النَصبُ و إلقاءُ التُهَمِ و تَحِيلُ هَذَا البَلاءِ لِلغَيرِ و تَبادُلُ المَهارات بِالخِيانات و الحَمَاقَاتِ و انتِشَارِ قِلَةِ الحَيَاءِ و قِلَةِ الشَرف و دَولَةٌ تركبُ على دَولةٍ ، و

دَولةٌ تَتَباهى بِتجويعِ دَولةٍ ، و دَولةٌ تَتَحكمُ بِمَصيرِ دَولةٍ ، و دَولةٍ تَضعُ حِذَائَهَا بِفَمِ دَولةٍ أُخرى..

هَذِهِ هِيَ الأُخُوةُ التِي تَعلمنَاهَا ، سَبٌ و طَعنٌ و تَشهيرٌ و تَجويعٌ و تَقتِيلٌ و تَخوِينٌ أمَامَ العَالمِ كُلِهِ و في وَضحِ النَهَارِ و على عَينَكَ يَا تَاجِر ، و مع تَحِياتِ شرِكَتِهِ:

العَربي أخو العَرَبي..

أمَا القَاسِمُ المُشتَرَكُ بِيننَا..

فَدعَنِي أُلقي لَهَا تَحِيةً تَليقُ بِهَا لأنهَا جَمعتنا في مَجلِسٍ وَاحِدٍ تَحتَ خَمَارَةٍ وَاحِدَةٍ بِينَ جُدرانِ كَازِينو وَاحد الرَاقِصَةُ العَربيةُ المَصرِيةُ الأصلِ التي سَرقت قُلوبَ الخَلِيجِيينَ و أذَابت لُبَ أهلِ الشَامِ و أسكَرت

سَاسَةَ المَغربِ العَربي الفنَانَةُ الفَاضِلةُ و مُربيةُ الأجيال:

فِيفي عَبدو..

تَخَيل يرعَاكَ الله .. رَاقِصَةٌ تَجمعُنَا .. و حُدودٌ تُفَرِقُنَا ..

ضَياع ،

دَائِماً يَقولونَ لَكَ : الذِي فَاتَ مَات ..

دَائِماً تَجِدُ الأجوِبةَ الجَاهِزةَ لِكُلِ خَلَلٍ وَاقِعِي..

دَائِماً أنتَ المُستَمِعُ و الغَيرُ هُم مَن يَتَحدث..

دَائِماً أنتَ الضَحِيةُ لكُلِ فَجوةٍ اجتِمَاعِيةٍ أو اقتِصَادِيةٍ أو سِياسِيةٍ..

السؤال : أنتَ .. و لأنَكَ أنتَ .. مَاذَا سَتَفعل بِذَاتِكَ !؟ .. في وَسَطِ هَذَا الكوكَبِ الذي أطلقَنا عَلَيهِ الوَطنَ العَربي.. !

إنَ هَذِهِ الأوطَانَ العَانِسَ أوصلت أهلَهَا إلى حَضِيضِ البُؤسِ ، و أشبَعَت قَاعَ الأدمِغةِ بِالبَدَائِلِ و الأكَاذِيبِ ، خَوفاً مِنَ القَتلَةِ و عُملاءِ الوَطنِ و سَاسَتِهِ..

أَنَا كَفَرد لَن أستَطِيع فِعلَ أي شَيء ، لأنَ مَطَاحِينَ الأنظِمَة العَربية لم تَترُك لِعالقةِ السفَاحِين أيةُ مَساحَةٍ دَمَوِيةٍ..

هُنَاكَ و على بُعدِ سَنتِيتراتٍ مِنَ الرُعبِ و الإستبدَادِ ، تَغفو مَلايينٌ مِنَ البَشَرِ يُطلَقُ عَلَيهم بَني العَرب ، إنَهُم بَشَرٌ .. نَعم بَشَر..

مِن بَنِي الإنسَانِ .. طَيبُونَ .. أهل كُرَمٍ .. مِضيافُونَ..

لا يَختَلِفُون عَنَا بِشَيء البَتَة و لَكِنَهُم يَرتَدونَ ثِياباً قُطِعَت لهُم مِن أقمِشَةِ الظُلمِ ، لا شَيءَ جَدِيدٌ لَدَيهم سِوى العَيشِ على قَيدِ الرُوتِين الشَالِ لِحَركَةِ سَيرِهِم للحَضَارَةِ..

عُقُولٌ مُكتظةٌ بالخَلايَا النَائِمَةِ ، و لَكِنهَا قَابِلَةٌ لإشعَال هَذَا الكُونِ بِطَاقَةِ العِلمِ بِكَافَةِ فُصُولِهِ و تَفَاصِلِهِ و فُنُونِهِ و فُروعِهِ ، رُبمَا هَذا العُطلُ المُتَعمَدُ لِهَذِهِ الأدمِغَةِ مَقصُودٌ..

لَعَلّهَا مُؤامَرةٌ نَازِيَةٌ و نَارِيةٌ في نَفسِ الوَقتِ لِهَذِهِ الشُعُوبِ ، تَصبُ في مَصَالِحِ سَاسَتِهَا مِنَ الوَرَثَةِ و المُلُوكِ و الأُمَراءِ و غَيرِهِم مِنَ القَتَلَةِ..

لأنَ الإنفِتَاح على مَعَالِمِ الحَضَارَةِ و تَفَاصِيلِ السَيرِ خَلفَهَا ، يُعدُ إنذَاراً مُرعِباً لِلقِيادَاتِ المُغتَصَبَةِ للُقَمِ الشُعُوبِ بِالزَوَالِ و الفَنَاءِ..

و عَمِلوا بِكُلِ مَا أُتَاهُم الطُغيَانِ مِن قُوةٍ لِنَشرِ الفَسَادِ الفِكرِي و العَقَدِي و القَبَلِي ، و لَو بِالقُوةِ و السَيفِ ،

جعَلوا مِن سيوفِهم طُعماً للقَضاءِ على العُقُولِ و مَا يَجري بِهَا مِن تَحدِّياتٍ للوَقَائِعِ المُظلِمَةِ..

إنّهُ ضَياعُ الشَبابِ العَربي..

و ضَياعُ مَن أضاعُوهُم مِن سَلَفِهم الذِي رَضِي بِالظُلمِ..

فَكَمَا يَقولُ المَثَلُ الشَعبِيُ:

(ركبنَاه على الحِمَار مَدّ يَدهُ على الخُرج..)

و لكَ في الأمُةِ العَربيةِ اسوةٌ حَسَنَةٌ في هَذَا المِثَالِ ، فَلَقَد أمَروهُم على أعنَاقِهم و أوطَانِهم و أرزَاقِهم ، فَمَا كَان مِنهم إلا أن قَتَلوا و نَهَبَوا و سَرقوا و جَعَلوا الأوطَانَ عقَاراً كَبِيراً في أرصِدَتِهم ، هُوَ الضَياع وَحدَهُ الذِي جَنَاهُ بَنِي العَرب..

فَمَا كَان مِنَ الشُعوبِ إلا أن تَهرُبَ إلى مُتَنَفَسٍ لِتَبَنِي القَضَايَا المُستَحِيلةَ الأمَدِ بِالاسمِ فقَط و التَبنِي اللفظِي لا العَمَلِي ، هُروباً مِنَ الوَاقِعِ و إيجَادِ فَوهةٍ لِتفرِيغِ الغَضَبِ و الظُلمِ الذِي ذَاقُوهُ..

تَبنَتِ الشُعُوبُ العَربيةُ قَضيةَ فِلسطِين ، و هَذِهِ القَضِيةُ بِالذَاتِ لم يَصنَعوا مِنهَا إلا شَمَاعَةً للنَصبِ و النَهبِ ، فَكَانَ الضَيَاعُ مِن نَصِيبِ وَطنٍ يُقَالُ لَهُ مَسرى رَسولِ الله ، و شَعبٌ هُوَ ضَحِيةُ تَخَاذُلِ كَافَةِ الأنظِمَةِ العَربيَةِ ، تَشَتَتَ الشَعبُ و ضَاعَ الوَطنُ ، و بَقِيت في الذاكِرةِ قَضِيةٌ نَهتِفُ لَهَا و نَنسجُ الشِعرَ لأجلِ عَينِيهَا و نَكتُبُ في آخرِ عَامُودٍ صَحَفِي تَارِيخَ شَهَامَتِنا..

أُنظر إلى الشُعوبِ العَربيةِ المُوصَدةِ بِقوانينِ الراعِي لبؤسِهم ، لا يَستَطِيعونَ أن يُقَدِموا لإخوانِهم على الجَانِبِ الفِلسطِينِي سِوى الدَعواتِ و المُظَاهَراتِ .. السؤالُ هوَ:

مَاذَا فَعلت هَذِهِ الفعَّالياتُ مِن بِدَايةِ احتِلالِ إسرائِيل حتى هَذِهِ اللحظَةِ ، كُلُ هَذِهِ النَدواتِ و المُظَاهَراتِ العَارِمَةِ التي أغرَقت شَوارِعَ العَواصِمِ العَربيَةِ.. !!

لا شَيء .. فَقط الضحِكَ على اللِحَى و العُقُول ، و استهزاءٌ بِالمَشَاعِرِ و العَواطِفِ الصَادِقةِ ، نُزولُ الشَعوبِ إلى الشَوارِعِ بِفَترَةٍ مُعَينَةٍ و بِطَرِيقةٍ مُعَينَةٍ و

بِشَكلٍ مُقَنَن لن تَستنتِج مِنهُ إلا شَيئاً وَاحِداً .. ألا و هُوَ:

سَحبُ هَذا الغَضَبِ و الغَصَةِ المُستَقِرَةِ في حُلوقِهم ، و بَعدَهَا يَعُودوا إلى مَنَازِلِهم كَيومِ وَلَدَتهُم أُمَهَاتُهم ، مُرتَاحِي البَالِ و القَلبِ ، فَارِغِين مِن كُلِ شَيءٍ فَوقَ فَراغِهم..

ضَيَاعٌ بِالجُملَةِ..

و ضَيَاعٌ بِالتَقسِيطِ..

و ضَيَاعٌ أنِيقٌ..

و ضَيَاعٌ باهِظٌ..

و ضَيَاعٌ مُتَرَدِي..

هَذا الانقِسامُ في الضَياعِ لا يَعنِي أنهُ انقِسامٌ نِسبيٌ بينَ مَدٍ و جَزرٍ، أو انقَسامٌ مُنَظَمٌ و مُرَتبٌ .. كلّا..

إنّهُ ضَياعٌ في قَلبِ ضَياع .. أي:

كُلَّهُ، فَوقَ كُلِّهِ..

مِنَ الجَمِيلِ أن تَقرأ عَنِ النِسَبِ المَتفَاوِتَةِ عَنِ الضَياعِ ، بيدَ أنَكَ كَقَارئٍ عَربِيٍ تَعيشُ في قَعرِ الضَياعِ..

مَاذَا تَرِيدُ أن تَعرِفَ عَنِ الضَياعِ العَربي!!

البَطَالةُ!!

الكَبتُ السِياسِيُ!!

كَبتُ الحُرِّياتِ!!

الرَجعِيةُ!!

الطَائِفِيةُ!!

المَلاعِبُ التِي ترتَادُهَا جمَاعةُ

(كل مِين إيدو إلو.. !!)

مُشَاجَرَاتٌ و مَضَايقَاتٌ و تَكسِيرٌ للسَرافِقِ العَامَةِ و شَتمٌ و سَبٌ و تَخرِيبٌ و سَرِقةٌ و قَضَايا رُبمَا تَصِلُ إلى القَتلِ و الذَبحِ .. و مِن أجلِ مَاذا يا هَذا!!

مِن أجلِ المُنتَخبِ الفُلانِي و الفَرِيقِ الفُلانِي..

بِضَاعةٌ هَابِطَةٌ و أخلاقٌ لا تَمُتُ للرِيَاضَةِ بِصلَةٍ ، و انقِسَامَاتٌ تَحرِيضِيَةٌ ، لو دَقَقتَ بِهَا جِيداً سَتَجِدُ أنهَا تَدعُوا إلى تفكِيكِ اللُحمَةِ الوَطنِيَةِ و الانسلاخِ مِنَ الإنسَانِيةِ..

المَقَاهِي..

لمْ تَعُد المَقَاهِي العَربيةُ تُغلِقُ ابوابَها لا لَيلاً و لا نَهاراً ، والسَببُ هوَ نِسبةُ المُرتَادِين مِنَ الشبابِ الضَائِعِ لِتِلكَ الزَاوِيةِ المُشبَعَةِ بِالأمراضِ النَفسِيةِ و الصِحِيةِ..

سَجَائِرٌ و شِيشَةٌ و أنواعٌ دَخِيلَةٌ و جَدِيدَةٌ للكُحولِ و المُخدَراتِ ، لمْ تَسأل نَفسَكَ لمَا يَرتَادُ هَؤلاءِ الشُبانُ هَذِهِ الأمكِنَةَ ، أنتَ تَعرِفُ الجَوابَ بِالتَأكِيدِ و تَعرِفُ بِأنَ هُنَاكَ عَدَدٌ هَائِلٌ مِنهُم قَدْ أنهَوا حَياتَهم الجَامِعِيةُ و الأكَادِيمِيةُ بِنِهَايَةٍ تَعِيسَةٍ في المَقَاهِي الشعَبِيةِ و إذا زَادت نِسبَةُ الضَياعِ فَهَذَا يَعنِي أنَ المَقَاهِي لمْ تَعُد تُجدي نَفعاً لِينتَقِلَ بَعدَهَا إلى المَلاهِي الليلِيةِ التي تُدعَى : كَازِينُوهَات..

يا الله .. كَم نَحنُ مُصَابون بشَلَلِ الضَياعِ ، سَببُهُ .. لن أقُولَ لَكَ مَا سَبَبهُ لأنَكَ أنتَ أعلَمُ بالسَبَبِ و المُسَبَبِ .

إكتِئاب ،

مَرضٌ ، أو سَجِيةٌ ، أو طَبعٌ ، أو تَطبُعٌ..

لا نَعلمُ مَا هُوَ هَذَا الشَبَحُ الذِي أنزلَ حُمُولَتهُ في الوَطنِ العَربي ، و لَكِن نَعَلمُ بِأنَ الضَحِيةَ هِيَ شُعوبٌ مُهمَشَةٌ على قِيدِ النَومِ..

يَقولُ مُواطِنٌ عَرَبي:

لم أعُد أشعُرُ بِشيءٍ ، خَالي مِنَ الأُمنِياتِ ، و مِنَ الأهدَافِ ، و مِنَ الطُمُوحَاتِ ، و حَتى مِن أكسِجِينِ الحَياةِ..

قُلتُ:

كَيفَ اكتَشفتَ هَذِهِ الحَالةَ ! ، و أين ! ، و متَى ؟..

قَالَ:

ذَاتَ نجَاح ، و بَعد أن أتممتُ المَرحلَةَ الجَامِعِيةَ..

لمْ تَعُد تِلكَ النظَرات الحَنونَةُ تَحنوا عَليَّ..

اختَفى ذَلِكَ البَرِيقُ في عُيونهم..

شَيءٌ مَا قَد تَغَيرَ ، ولَكِن مَا هُوَ !؟..

أشيَاءٌ تَقول لَكَ : قُمْ و ابحَث عَن عَمَلٍ..

ولَكِن أين ! .. وكَيف ! ..

رُحتُ أُقَلِّبُ الصُحفَ اليَومِيةَ في الزَوايا التي تَطلُبُ مُوظَفِين بِذَات الاختِصاص الذِي أفنَيتُ عِدَةَ سَنواتٍ مِن شبابي في تعلُمِهِ ، و أُجرِي الاتصَالاتِ هُنَا و هُنَاك عَسى أن أجدَ ضالتِي ، و أُخمِدَ الغَليان في نَظَراتِ أبِي..

أربَعَةُ أشهُرٍ على نَفسِ الرُوتِين..

أبدأُ صبَاحِي بِكُوبٍ مِنَ النِسكَافِيه..

على وَقعِ أوراقِ الصُحُفِ..

و أُقَلبُهَا بَتَعَنٍ ، كَالذِي يَبحَثُ عَن دَواءٍ لِدَاءٍ مُحَالٍ أن يُشفَى مِنهُ ، و تَسعَى عَينَاي جَارِيةً يُمنَةً و يُسرى بِينَ كُلِ سَطرٍ و سَطرٍ..

لَمْ تَعُد أُذُنِي تَتَلَذذُ بِسمَاعِ فَيروز ، لَمْ يَعُدِ الصَباحُ أنِيقاً ، لمْ أعُد أرغَبُ بِتنَاولِ وَجبَةِ الإفطَار مَع وَالِدِي ، حَتى تَنَازلتُ عَن وَجبَتّي الفَطورِ والعشاءِ..

ذَاب الدُهنُ الذِي خَزّنتُهُ خَلفَ لِحَافِ جِلدِي ، و تَرهَلَ الجِلدُ يئْساً ، و فَقدتُ مِنَ الوَزنِ خَمسَةَ عَشَرَ كيلو غَرام..

و تَكاثَرتِ الصُحُفُ في غُرفَتِي يَوماً بَعدَ يَومٍ..

أمَا السَجَائِرُ فكانت المُؤنِسَ الوَحِيدَ لهذا الكَابوسِ الذِي يسحقُنِي في الوقتِ الشبهِ ضَائع ، فَلا أعلَمُ مَن هُوَ الضَائِعُ أنَا أمِ الوقتُ أمْ تِلكَ النظَرَاتُ التي تُلاحِقُ رَاحَتِي..

لا زَالتْ أُمِي تَحشُو في جَيبِ بِنطَالي شَيئاً مِنَ المَالِ حَتى لا أنكَسِر انكِساراً كُلِياً ، ولكنِ المَالَ في طَرِيقِهِ إلى مِطفأةِ السَجَائِرِ ، تَتَبَخرُ مَعَ الرمَادِ ، لتعُودَ إلى مَوطِنِهَا الأصلِي..

زَادت حِدَةُ التوتِرِ في المَنزِلِ بِسؤالٍ جَاءَ كَطَلقَةٍ دَخلَت قَلبِي ، لا هِيَ قَتَلتْنِي و لا هِيَ أرَاحتْنِي ، فاستِقرارُهَا يُؤلِمُنِي كُلما رأيتُ وَالدِي في البيتِ ، قَالَ لِي:

- أيه يا بُنِي .. هَل وَجدتَ عَملاً !؟

تَخيل بَعدَ خَمسَةِ أشهُرٍ على حَسَبِ التَقدِيرِ الزَمنِي الذي زَادَ فيهِ طولُ شَعري ، و تَشعبتِ الطُرقُ في لِحيَتِي..

أجبتُهُ:

- لا زِلتُ أحَث.. !!

يا الله ..كَم أنَا مُختَنِقٌ ، أُرِيدُ أن أخلُدَ إلى الأملِ ، لَقد زَادَ وَقودُ يأسِي ، و اشتعَلت في قَلبِي نِيرانُ القَلقِ..

تَوتُرٌ.. و قَلقٌ .. و يأس..

و مَاذَا بَعدُ يا رَبّاهُ.. !!

في غُرفَتي التي أضحَت مَقراً للتفتِيشِ و التَنقِيبِ عَنِ الوَظَائِفِ ، مَا تُراهَا هَذِهِ المَساحَةُ فَاعِلَةٌ بِي.. !!

رُبمَا سَتُطبقُ عَليَّ الجُدرانُ ، و تَجعلُنِي عِبرَةً للصُحفِ و الدُخَانِ..

وَقعت عَينِيَّ على إعلانٍ:

مَطلُوب مُوظَف يَحملُ شَهَادَةَ التَاريخِ في المُتحَفِ القَومِي للدِراسَاتِ التَارِيخِيةِ..

كِدتُ أن يُغمَى عَلَي ، كِدتُ أن أطِيرَ فَرحاً ، أو أن أموتَ شَهِيداً على بَلاطِ الصُحفِ و المَجلاتِ ، كِدتُ أن أصِيحَ بِأعلى مَباهِجِ السُرورِ ، و عَقلي يَقولُ:

هَوّن عَلَيكَ .. إنَ الأمورَ بِالخَواتِيمِ..

كَتبتُ العنوانَ على وَرقةٍ صَغيرَةٍ و رَقمَ الهَاتِفِ و مَوعِدَ المُقَابلَةِ .. مَوعِدَ المُقَابلَةِ!!

أووووه .. إنّ الموعِدَ غَداً..

.. / 5 / 28 الساعة التاسِعة صَباحاً..

رُحتُ جَارِياً إلى مِرآةِ الحَمَامِ أحلقُ لِحيتِي ، و أُرتِبَ هيئَتي ، و أخرَجتُ بنطَالِي الذِي لم يَعُد على مَقَاسِي ، لِيأكُلَ نَصِيبَهُ مِنَ المِكواةِ..

ونِمتُ في سَرِيري .. كَمَا تَنامُ العروسُ في خِدرِهَا..

و دَخلتُ في سُباتٍ لم يُخرجَنِي مِن تَابوتِهُ سِوى ضَجِيجُ المُنبِهِ..

أمسكتُ سَاعَةَ المُنبِهِ و أخرَستُ صَخبَهَا..

تركتُ الرُوتِين الصَباحِي لِغُرفَتِي..

النِسكَافِيه .. الصُحف .. فَيروز .. و سَرِيرٌ بِلا فَارسٍ و لا جِيادٍ..

ارتَديتُ مَا أعدَدتهُ يَومَ أمسٍ ، بِتَسرِيحَةِ شَعرٍ ارتِجَالِيَةٍ ، و عِطرٍ كَلَاسيكيٍ مِن قَارورَةِ وَالدِي ، و ذَقنٌ خَالٍ مِنَ الشَعرِ ، استَقبلتنِي جَارتِي بابتِسامَةِ شُؤمٍ ، و يا لَيتَنِي لمْ أرهَا و لمْ تَرَنِي ، و لمْ تَكتَفِي بِتوجِيهِ سِهَامِ عِينِيهَا إليَّ ، بَل قَالت بِمكْرٍ و تَطفُلٍ:

صَباحُ الخَيرِ .. هَل وجَدتَ عَملاً..

قُلتُ و أنَا أغلي بِنِفاقٍ:

صَباحُ النُورِ .. لمْ أجِدْ عَمَلاً حتى الآن..

تَركتُهَا لفُضُولِهَا و ثَرثَرتِهَا .. زَحفتُ ...واثِقُ الخُطوةِ يَمشِي مَلكَاً..

اليَوم سأُثبِتُ لأبي أنَني رَجُلٌ ، و لا تُخيفُنِي النزلاَزِلُ و لا الكُثبانُ الرَملِيَةُ ، سأَعودُ إلى المنزِلِ و في جَيبِي أوراقُ الوَظِيفةِ الجَدِيدَةِ ، لنْ أرى نَظرَاتٍ قَلِقَةٍ بَعدَ اليَومِ ، لَنْ استَمِعَ إلى الأسئلةِ و التَدخُلِ في شؤونِي الشَخصيةِ ، لَنْ أرى بَعدَ ذَلِكَ كوابيسَ الصُحُفِ الورَقِيَةِ و لا غَيرَ ذَلِكَ..

و بَعدَ أن قَطَعتُ مَسافَةً مِنَ المَشيِ و امتِطَاءِ عَواصِفِ الحَافِلاتِ ، وَصَلتُ أخيراً إلى العُنوانِ المَطلوبِ ، إلى المَتحفِ الوَطنِي .. إلى التَاريخِ الذِي تَلقِينَاهُ ، التاريخ الذِي لا نَعرِفُ مَدى مِصدَاقِيتِهِ ، لا يُهم عَرفنَا أمْ لمْ نَعرف..

مَا يُهِمُنِي أن أتوظَفَ لِتَعودَ لِيَ الحَياةُ..

فَكمْ أنَا مُشتَاقٌ إلى الحَياةِ..

- مَرحَباً .. لَقد قَرأتُ في الصَحِيفَةِ بِأنكُم تَبحَثونَ عَن مُوظَفٍ في مُتحفِكُم.. !!

- أهَلاً و سَهلاً بِكم .. لَقد نَفِدَ الوَقتُ و أخَذَ هَذا المكَان اِبن فُلان بِيك..

لَقد حَدَثَت هَذِهِ القِصَةُ مُنذُ ثَلاثِ سَنواتٍ بِالضَبط ، و لا زِلتُ أبحثُ عَن عَملٍ يَليقُ بِتَخَصُصِي في التَارِيخ ، كَتبتُ هَذِهِ القِصةَ بِسُرعَةٍ لأنَني الآنَ أعمَلُ في شرِكَةِ اكتِئاب ، و يَجبُ عليَّ الرَحِيلُ مِن هَذِهِ الدُنيا بِأقربِ وقتٍ..

فُرصَةٌ سَعيدَةٌ أيتُها الحَياة .

إضطِراب ،

هُوَ الوَطنُ وَحدَهُ..

و نَحنُ لَفِيفٌ مِنَ المُحتَالِينَ..

كَصَاصّي الدِمَاءِ مِن شَرايينِ خَيراتِهِ..

يَمدُ لَنا كَفّ تُرابِهِ ، و نَرُدُ لَهُ صَفعَةَ تَخَاذُلِنَا..

لم نَكُن نَعلمُ بَعد بِأَننَا سنُرَدُ يَوماً إلى أمعَاءِ لُحُودِهِ.. !

و لم نَعِي بِأنَ دِيدَانَهُ سَتَنهَشُ مَلامِحَنا بِشَراهَةِ جَلاد.. !

هَل أرَادَ أن يَقتَصَ لِتُرابِهِ ! .. أمْ أنَها تَصفِيةُ حِسَابَاتٍ.. !

لَقد أرهَقتنَا النَظراتُ المَادِيةُ حَتى في فسَافِسِ الأُمورِ ، و نَسِينَا بِأَننَا نُزلاءٌ لِزمَانٍ مُعَيّنٍ على شِبرٍ مُعَيّنٍ نَنتَسِبُ لِفِئَةٍ مُعَينَةٍ ، إنَهُ الغَباءُ بِحدِ ذَاتِهِ و المُفَارَقَةُ

الشاسعةُ بينَ مَن فَهِمَ الوَطنَ و عَادَاهُ بجهلٍ ، و لأننَا في الوَطنِ العَربي فَإننَا نَعيشُ في صِراعٍ مَعَ الوَطنِ و مَعَ الآخَرِينَ و حتى مَعَ ذُواتِنَا..

و لكَ في المُواطِنِ العَربي و الوَطَنِ الذِي يَنتَسِبُ إليهِ أسوأُ مِثَالٍ..

يَقُولُ المُواطِنُ الذِي أودَعَتهُ السُلطَةُ مَنصِبَ المُدِيرِ العَامِ لأحَدِ الدَوائِرِ الرسمِيَةِ للدَولَةِ:

ـ لَقد وَصَلنِي القَرارُ بِشكَلٍ مُباغِتٍ..

الهَاتِفُ يَرِنُ ، بجَانِبِ الصَحنِ الزُجَاجِي المُستَلِئِ بِأعقَابِ السَجَائِرِ ، السَاعَةُ الحَادِيَةَ عَشرَةَ قَبلَ الظُهرِ ، و النَهارُ لا زال في بدايَتِهِ ، و مُعَامَلاتِ المُواطِنِينَ مُبعثَرَةٌ على الطَاوِلَةِ بانتِظَارِ النَظَرِ في أمرِهَا ،

فَأمَا أصوَاتُ المُراجِعِينَ و دَبِيبُ تَشعُبِهم بينَ مَنَاقِدِ المُؤسَسَةِ فَهَذِهِ المُوسِيقى التي نَتجَرعُهَا طِيلَةَ فَترةِ الدَوامِ الرسمِي..

مُؤسَسَةٌ بُنِيت على الفَسادِ الدَاخِلي و الخَارِجِي..

كُلُ مَن فِيهَا لَمَّ مِنَ المُرتَزِقَةِ و الفَاسِدِينَ ، صَالِحَهم فِيهَا يَعملُ لِصَالِحِ المُخَابَراتِ الفَاسِدَةِ التي اشتُهِرَت بِالظُلمِ ، فَمَا بَالُكَ بِالخَائِنِ!! ..

لا تُفَكِر كَثِيراً بِالصَالِحِ و الطَالِحِ .. و لا الجَانِي و لا المَجْنِي عَلَيهِ ، لِإنَكَ ضَحِيَةُ فَسَادٍ على وَطنٍ لا أعلَمُ كَيفَ قَبِلَ بِكَ حَاكِماً فَاسِداً و محكوماً أشَدُ فَسَاداً..

هُوَ الوَطنُ وَحدَهُ..

ضَحِيَةُ جَشَعِنَا و تَردي أخلاقِنَا..

يَقولُ ذاكَ المُواطِنُ:

ـ فَبعَد أن استَلمتُ ذَلِكَ التَكليفَ الرسمِي مِن الوَزَارةِ ، انتَابتنِي غصَةٌ في ضَمِيري..

يُعَدُ أخَانَا هذَا .. الثُعبَانَ السَامَ في هذِهِ المُؤسَسَةِ ، فَتقَرِيرُهُ المُخَابَراتِي لا يَعلو عَليهِ تقرِير ، هكَذَا هُوَ قَد جَبَلَهُ فَسَادُهُ على الإضرارِ بِالمواطِنِينَ زُوراً و بُهتَاناً ، لِتَلمِيعِ اسمِهِ أمَامَ أسيادِهِ الفَاسِدِينَ ، أمَا زُمَلائُهُ في العَمَلِ فإنَهُم يَتحَاشَونَهُ و يُجِلوا لَهُ الحَدِيثَ بِابتِساماتٍ زَائِفَةٍ خَوفاً مِن قَلَمِهِ الدَسِمِ سُمَاً الذِي يُخفِيكَ عَنِ الوجُودِ ، و مَعَ أنّهُ بَسِيطُ المَظهَرِ بِلبَاسِهِ البالِي و نَظّارَاتِهِ الطِبيةِ ذَاتِ الإطَارِ الأسوَدِ الكَلاسِيكِي و شَعرِهِ المُخَضّبِ

بِصَبغةٍ ذَاتِ مَاركة قَدِيمة و سِيجَارَتُهِ التي لا تُفَارِقُ يَدَهُ على الإطلاقِ .. فإنّهُ لا يُؤتَمَنُ مَكرُهُ بَتاتاً..

نَعم لَقد وَصَلَ إلى أعلى قِمَةٍ في المُؤسَسَةِ على أنقَاضٍ مِنَ الفَسَادِ و التقَارِيرِ و الوَشِي بِحَقِ أبنَاءِ الشَعبِ ، فَمَاذَا تُراهُ فَاعِلٌ يا تُرى.. !!

أيُعقَلُ أن يَتحَركَ ضَمِيرهُ في هَذِهِ اللحظَةِ التَارِيخِيةِ ! .. إنّهُ يَتحدَثُ عن غَصَةٍ في حَلقِهِ..

أيُ رَجُلٍ هَذَا.. !

يَقُولُ ذَاكَ المُواطِنُ:

ـ أمسكتُ وَرقَةَ التَكلِيفِ التِي أُلِلَت إليَّ بِيدِينِ مُرتَجِفَتَينِ ، و تَذَكرتُ أشيَاءً قَد حَدثَت لِمن كانَ قبلي مِن رُؤسَاءِ المُؤسَسَةِ ، وكَيفَ كَانَ حَتفُهُم و نِهَايَتُهم..

فَلقَد وَشى سِكرتيرُ المُدير السَابقِ لمُديره بتقريرٍ ثُلاثِي الأبعَادِ لِلوزَارَةِ ، و لو ترى كَيفَ اقتَصَت أجهزةُ المُخَابَرات المكتَبَ و سَاقتهُ إلى كوكَبٍ يُسَمى تَحتَ الأرض ، فَالدَاخِلُ إليهِ مَفقُودٌ و الخَارِجُ مِنهُ مَولودٌ و لا مُخَلِّصَ لكَ إلا رَشوَةٌ دَسِمَةٌ لأحدِ قُطّاعِ الطُرُقِ في الدَولَةِ لِيُنقِذَكَ مِن هَذِهِ الوَرطَةِ..

أمَا المُديرُ الذِي كانَ قَبلَهُ فَقد فرَّ خَارِجَ الوَطنِ حَامِلاً مَعَهُ حَقَائِبَ مَالِ الحَرامِ مِن مُقَدّرَاتِ الشَعبِ و الدَولَةِ فَلا يَضُرُ إن سُرِقَت طَالمَا أنَ هَذِهِ الأموَالَ جُمِعَت مِن شَقَاءِ الشَعبِ و لَكِن بِطَرِيقَةٍ مُقَنَنَةٍ تَسمَحُ لِلُصوصِ بِامتِصاصِ رَحِيقِ الشَعبِ الذِي ابتَلاهُ الوَطنُ بِقَادَةٍ قَوادَةٍ..

و لِكُلِ مُدِيرٍ كَبوَةٌ و هَفوَةٌ تَذهَبُ بِهِ إلى الجَحِيمِ ، إنّهُ جَحِيمُ الظَالِمِ لِلظَالِمِ و عَذَابِ الفَاسِدِ بِالفَاسِدِ ، فَكُلمَا ارتَقى بِهِم فَسادُهُم بِالرِشَى و التَقَارِيرِ و سَحقِ رَاحَةِ بَنِي البَشَرِ و إفسادِ حَياتِهِم .. فَكُنْ على يَقِينٍ بِأنَ المَنَاصِبَ تَنتَظِرُكَ بِفَارِغِ الظُلمِ..

يَقَولُ ذَاكَ المُواطِنُ:

لا بُدَ لِي أنْ لا أقبَلَ حَتى لا يكونَ مَصِيرِي كَمَصِيرِ أَسلافِي..

ضَحِكَ القَدرُ لَهُ بِمكَرٍ ، بينمَا صَاحِبُنَا يَسحَبُ مِن مِحفَظَتِهِ سِيجَارَةً ، و رَاحَ يُشعِلُهَا و يَنفُثُ سُمُومَهَا في وَجهِ الوَطنِ ، و بَدأ العَدُ التَنَازُلِيُ بينَ رَفضِ القَرارِ و قَبُولِهِ..

إتصلَ بصاحبِ البوفيه الذي يُعدُ المَشروباتِ الساخِنَةَ للموظفينَ ، و طلبَ منهُ فنجاناً من القهوةِ الساخِنَةِ ، و كالعادةِ خالي منَ السكر..

أنهى الأوقاتَ الساخِنَةَ بطقوسِها الحافِلَةِ بالمكرِ و التوتُرِ..

ما تُراهُ فاعِلٌ يا تُرى.. !

إنّهُ التخبُطُ المَريرُ..

هذا حالُ الساسَةِ في أوطانِنا العربيةِ ، و الأنظِمَةِ التي بالَ عليها القدرُ كُلُها على هذا النحوِ من تتنِها المُتردِي الذي أوصلَ الشعُوبَ العربيةَ إلى مرحلَةٍ يخشى فيها منَ الجُدرانِ و أن لا تتلفظَ أمامَها و لا حرفاً..

هُناكَ شيءٌ في هذا الجسدِ لَمْ يلمسهُ أحد..

و هنَاكَ شَيءٌ تَمشِي عَلَيهِ لَنْ تَشعُرَ بِهِ إلا عِندَ مَوتِكَ..

هَذَانِ الشَيئَانِ بِينَهُما صِلَةُ رَحِمٍ:

الوَطنُ و الضَمِيرُ..

فَالُمواطِنُ العَرَبِيُ يَعِيشُ في تَخبُطٍ بينَ الجمَادِ الذِي سَيسحَقُهُ و بينَ الحِسِ الدَاخِلِي الذِي يَعمَلُ على سَحقِهِ لَيلاً نَهَاراً..

فَهل تَقوى على من هُمَا أحَنُ المَحسوساتِ إلَيكَ.. !

هَل لدَيكَ شَكَ بِأننَا أحيَاءٌ!!

كُلُ شَيءٍ مُرعِبٌ ، و كُلُ ما على هَذا الثَرى مُخِيفٌ ، بِمَاضٍ بُنِيَ على الورَقِ زُوراً و بُهتَاناً تَتَجَدُ ، و لمُستَقبَلٍ حَافِلٍ بِالكَوارثِ الفِكرِيَةِ و السِياسِيَةِ و

الاقتِصادِيَةِ ، حَتى وَصَلَ بِنَا الضَميرُ إِلى حَالَةٍ جُنونِيَةٍ مِنَ التَخبُطِ ، فَلا نَحنُ مِمَن رَبِحَ الضَمِيرَ و لا مِمن رَبِحَ الوطن..

تَحِيَةٌ إِلى الشُعوبِ التي استجَابت لِنِدَاءِ أوطَانِهَا ، و أحَيت ضَمَائِرَهَا بالحُرِيَةِ و الكَرامَةِ ، و جَعَلَت مِن حُدودِهَا جِنَاناً على شَاكِلَةِ تَطورٍ و اكتِشَافَاتٍ و اختِراعَاتٍ و تَمَدُّنٍ ، هَؤلاءِ هُم وَحدَهُم مَن فَهِم الوَطنَ و مَن أنصَفَ الضَمِيرَ..

العَادَاتُ و التقَاليدُ ،

رَضِيتَ أمْ لمْ تَرضَ فَأنتَ مُلاحقٌ مُلاحَق..

تَحتَ هَاتَين الجُملتِين تُلاحَقُ أنتَ بِأعيُنِ التطفُلِ..

كَذَرَةٍ أنتَ في هَذِهِ المَجَرةِ ، بَلْ كَنُطفَةٍ تَحتَ مَجهرِ القومِ..

و أيُ قومٍ هُم.. !

إنّهَا التجمُعَاتُ العَربيَة التَي اتخَذَت لِنفسِهَا دُستُوراً للسَيرِ على حَدِ سَيفِهِ ، شِئتَ أمْ أبيتَ سَتخضَعُ لِهَذِهِ القَوانِينِ الجَبرِيَةِ ، التي لا تَستَطِيعُ أن تُنَازِلهَا و لا بِحرفٍ وَاحِدٍ..

كَمَا السُلطَاتُ و الأنظِمَةُ العَربِيَةُ دِكتَاتُورِيَةٌ و مُتَسلِطَةٌ ، و تُسلِمُ الحُكمَ وِرَاثَةَ حِمَارٍ عَن حِمَارٍ.

كَذلِكَ وجَهَاءُ العَشَائِرِ المُؤسِسِينَ لمَا يُسمَى العَادة التي بالَ عَليهَا الزمَانُ ، و التقَالِيدُ التي لا تَنفَعُ إلا لِلعُصُورِ الحَجَرِيَةِ ، بمَالِهم و جَاهِهِم و تَلمِيعِهم لِلصُوصِ الوَطنِ أوصَلونَا إلى عِبادَةِ الظَلمَةِ و القَتَلَةِ مُحجَةِ:

دَرءُ المَفاسِدِ مُقَدَمٌ على جَلبِ المَصالِحِ..

إنّ الرَدّ على هَؤلاءِ الفَاسِدِينَ جَاهِزٌ و مُفَصَلٌ و كَمَا كَانت تَقولُ جَدتِي:

وِجع يلي يخلَع نِيعكُم..

تَقُولُ المُواطِنَةُ العَرَبِيَةُ التِي لَمْ تَرى مِن شَبَابِهَا إلا جُدرانَ البَيتِ و سَتَائِرَ نَوافِذِهِ:

. اليَوم حَصَلتُ على شَهَادةِ التَوجِيهِي بِمُعَدل 95٪ إنهَا فُرصَةُ العُمرِ لِدُخُولِ مَرحَلَةِ الطَبِ البَشَري و الحُلمُ الذِي كَان يُراودني ، فَهَل سَيسَمَحُ لِي أهلي و بِالأخَصِ أخَي الأكبَر بِدُخُول الجَامِعة.. !!

تَعيشُ هَذِهِ الفَتَاةُ في قَريةٍ تَبعُدُ عَن المَدِينَةِ الجامِعِيَةِ أربَعِينَ دَقِيقَةً في الحَافِلَةِ ، أمضَت مَرحَلَةَ التَوجِيهِي بين نَارَين ، نَارِ الأهلِ و نَارِ العِلمِ ، جَحِيمُ العَادَاتِ و جَحِيمُ المُستَقبَلِ..

لَقَدَ خَرجَ أخَاهَا الأكبَر مِنَ المَدرَسَةِ بَعدَ المَرحَلَةِ الابتِدَائِيَةِ ، لَيسَ لأسبَابٍ مَادِيةٍ..

بَل لِفَشَلِهِ الفَادِحِ بِالدِراسَةِ ، كَمَا أَنَّهُ رَسَبَ في المَدرَسَةِ ثَلاثَ مَراتٍ ، وكَانَ الأهلُ يُحبُونَهُ و يُقدِسُونَهُ كَونَهُ الابنُ الأكبَرُ ، أو بِعِبارةٍ أصح الثَورُ الأكبَرُ..

و لأنَهُ فيهِ مِن صِفَاتِ الرُجُولَةِ و التَمرُدِ كَمَا تَصِفَهُ وَالِدَتُهُ خَارِجَ المَنزِلِ و في دَاخِلِهِ ، كَان وَالِدُهُ يُلقِّبُهُ بالكَلِمَةِ العَرِبِيَةِ المَشهُورةِ:

زَلَمَةِ البِيت..

و صَدِيقَتُنَا أكمَلت دِراسَتهَا بِتَفوقٍ و تَقدُمٍ على زُمَلائِهَا في الدِراسَةِ بِكُلِ جَدَارَةٍ و بِعَلامَاتٍ تَامَةٍ و شَهَادَاتٍ يُفتَخرُ بِهَا أمَامَ العَالَمِ بِأكمَلِهِ..

و للأسَفِ وجُودُهَا و عَدمُ وجُودِهَا في المَنزِلِ وَاحِدٌ ، لأنَ الأب كَانَ يَقولُ دَائِماً:

آخِرُ البنَاتِ الذهَابُ إلى بيوتِ أزوَاجِهِنَ..

و أمَا الأبنَاءُ مِنَ الذكُورِ فلَهُم الخِيرَةُ في أُمُورِ حَياتِهم بينَ مَدٍّ و جَزرٍ ، و بينَ فَرٍ و كَرٍ ، لَهُم الحُرِيَةُ و للإنَاثِ الاستعبَادُ و التحكُمُ بِمَصِيرِ مُستقبَلِهِنَ .. و إن رَفَضَتِ الأُنثَى عُروضَ أهلِهِن مِن أُمورٍ مُستقبَلِيَةٍ أو خِيراتٍ مَصِيرِيَةٍ فَإنَهَا قَد تُعرِّضُ حَياتَهَا للسَخَاطِرِ أو رُبمَا الإيذَاءِ النفسِي و رُبمَا إن لَزِمَ الأمر الجَسَدِي ، و إن رَكِبَ الأهلُ شِيطَانَهُم تَذهَبُ ضَحِيةً و وَجبَةً دَسِمَةً للمَوتِ و الأكفَانِ و القُبورِ و الديدَانِ..

وَحدَهَا القُبورُ تَعلَمُ كَم مِن أُنثَى تَسَجت ظُلماً تَحتَ الثَرى ، و حَدَهَا اللحُودُ تَعِي مَا مَعنَى أن تُوارى امَرأةٌ في حَتفِهَا الأخِيرِ قَهراً ، تَقُولُ الأُنثى العَربية:

إسألوا القُبورَ التِي كُنَا فِيهَا و إنَا لَصَادِقُون..

إنْ لمْ تَمُت بِسَبَبِ تَمرُدِهَا لأمرٍ مَا ، سَتَمُوتُ قَهراً و حُمقةً و اختِنَاقاً لمُجرياتِ الأحَداثِ الغَيرِ عَادِلَةٍ مِن حَولِهَا..

تَقولُ صَدِيقتُنَا صَاحِبَةُ هَذِهِ القِصَةِ و الغَصَةِ:

. هَل سَيقبَلُ أهلي عَرضِي فِيمَا يَخُصُ مُستَقبَلي في دُخُولِي إلى الجَامِعَةِ.. !

ككَاتِبٍ عَاشَ في قَبِيلَةٍ لا يُستَهَانُ في أُمورِ شَرَفِهَا ، لأنَ شَرفَ القَبائِلِ إنَاثَهُم .. لا أعتَقِدُ..

ابتَسِمِي صَدِيقتِي العَربيةِ أنتِ في الوَطنِ العَربي..

سوفَ يُجنُ جُنونُكِ عِندَ أولِ عَابرِ شَهوَةٍ يُرِيدُ أن يَتحصَنَ للزَواجِ ، و طَالمَا أنَ الأخَ الأكبَرَ ثُورٌ على

شَاكِلَةِ إنسانٍ فَلن يَترَدَدَ بِستَرِ شَرَفِهِ و دَفنِ إناثِهِ في بَيتِ الزَوجِيَةِ ، و إراحَةِ ذَلِكَ الهَمِ الذِي يُرَاوِدُ كَافَةَ أفرَادِ العَائِلَةِ المُخَلِيَةِ بِالجَهَلِ و التَخلُفِ..

و أمَا الأبُ ، فهُوَ المُستَفِيدُ الأكبَرُ في هَذِهِ الصَفقَةِ ، صَدقِينِي يا سَيِدَةَ الوَرَقِ و الحِبرِ و يا مَن تَقَرئِينَ هَذِهِ الكَلِمَاتِ ، أنَ الآبَاءَ العَرَبَ 80٪ مِنهُم يَبحَثُونَ عن رَجُلٍ على حَسَبِ مَقَاسِ جَيبِهِم لا مَقَاسُكِ أنتِ يا عَزِيزَتِي..

سَيبِيعُكِ في سُوقِ الرِقِ في لَيلَةٍ ذَابَ فِيهَا ضَمِيرُهُ ، و هَيأَ بِهَا جَيبَهُ و خَزِينَتَهُ ، فَالوَاقِعُ و خَارِطَةُ الضَمِيرِ لَمْ تَعُد تُجدِي نَفعاً و لا يَهُمُهُم أن يكونَ ابنَ حَلالٍ أو ابنَ حَرامٍ..

لا أبداً ، المِقياسُ في الدَراهِمِ و الدَنَانِيرِ ، لا بِالعَلمِ و الأخلاقِ و القِيمِ..

هَذهِ العَادَاتُ التي نَزكَت لَعنَةً وكَذبَةً على أُمَتِنَا ، هِيَ لِلنَاس و لِلنَاس ، على حَسَبِ العدَّادِ التصَاعُدِي للأرصِدَةِ البَنكِيَةِ و الخَزائِنِ المَخفِيَةِ..

إن كَانَ معكَ لَيرةً .. فَأنتَ تُسَاوي لَيرَة .. و إن كَانَ معكَ ألفَ لَيرَةٍ فَأنتَ تُسَاوي ألفَ لَيرة .. و لِإنَكَ في وَطنٍ مُثِيرٍ للجَدلِ عَليكَ بِاعتزَالِ القَومِ و النَئْيِ بِطُهرِكَ خَارِجَ حُدودِ كوكَبِ العُروبَةِ ، فَجَهزِي جَسدَكِ يا آنِستِي لِلبَيعِ في أقربِ فُرصَةٍ و عِندَ أقرَبِ حِسابٍ بَنكِيٍ..

أمَا الأُم فَيا حَي هَلا بِهَا..

كذلِكَ تُرِيدُ أن تَفرَحَ ، فَهِي لَمْ تَفْرَح مُنذُ أن بَاعَهَا أهلُهَا لِبَيتِ الزَوجِيَةِ ، تُرِيدُ أن تُغَني فَهِي لم تُغنِي مُنذُ أن زَجَرهَا أبَاهَا أو أخَاهَا و رَمَى بِهَا في أقفَاصِ البَيتِ بُحُجةِ أنهَا كَبُرت و مِنَ العَيبِ بَقَائُهَا مَعَ الأطفَالِ..

الأمُ المَسكِينَةُ تُرِيدُ أن تُذِيقَ اِبنَتَهَا مِن نَفسِ الكأسِ الذِي ذَاقَتهُ..

لو دَقَقتَ مَعي في هَذهِ التفَاصِيلِ الحَقِيرَةِ التِي جَعَلت مِنَ الأُنثَى ضَحِيَةً لِمَطَامعَ شَخصِيَةٍ و عَادَاتٍ و تَقَالِيدٍ ظَالِمَةٍ و جَائِرَةٍ ، و لو أمعنتَ مَعي في تَفَاصِيلِ قِصَةِ صَدِيقَتِنَا لوَجدْتَ أنَ جَمِيعَ أفرادِ العَائِلَةِ يَنتَظِرونَ

الفَرَحَ على حِسابِ بُؤسِ هذِهِ الأنثَى التِي لا حَول لهَا و لا قُوة..

فَرَحُ الأبِ بِمَا سَيجنِيهِ مِن ثِمَارٍ حَانَ بِيعُهَا..

و فَرَحُ الأُمِ هِي دُموعُ السَرورِ أو رُبمَا الحُزنُ لمَا آلت إلَيهِ ابنَتُهَا مِن تَعَاسَةٍ ، و في ذَاتِ الوَقتِ إعادَةُ السِينَاريو الذِي مَرّت بِهِ في مَرحلَةِ البَيعِ العَلنِي مِن غَيرِ أخذِ إذنِهَا أو الاستمَاعِ إلى رَأيِهَا..

و فَرَحُ الأُخوَةِ مِنَ الذُكُورِ ، بِأنَهُم تَخلصُوا مِن شَرَفِهِم ، و أفَرغوا ذِمَتَهُم و أراحُوا حُمولَتَهُم ، بِوضَعِهَا في ذِمَةِ رَجُلٍ آخَر..

الوَطنُ وَحدَهُ كُلَ يَومٍ و لَيلَةٍ مَن يشهَدُ تِلكَ الفَجَائِعَ و الكَوارِثَ اللا إنسَانِيةِ .. و المَرأةُ اِحدى هَذِهِ الضَحَايا..

شُكراً يا تَاج رَأسي سيادَةَ الوَطَن .. أنَا أعلَمُ بِأنَهُ لا ذَنبَ لَكَ .

رُوتين ،

نَحنُ أبنَاءُ الجِيلِ الحَدِيثِ..

مِن بَني الفَيسبوك و التِويترَ و الإنستِغرام..

من قَبائِلِ الهبُرغَر و البِيتزا و الهَبي تِشكِن و الآيس كريم

مِن كوكبِ الأحلَامِ و مجرّاتِ الأوهَامِ و نَيازِكِ الأمرَاضِ النفَسِيَةِ ، فَالهُمومُ بِالنِسبَةِ لَنَا بَسِيطَةٌ جداً ، أكبرُ هَمٍ يَجتَثُ سَعَادَتَنَا لِيحلَ مَكَانَهُ تَوتُرٌ و تَخبُطٌ بِسَبَبِ الفَراغِ الدَاخِلي الذِي نَعيشُهُ..

أفرغ لي غُرفَةً بَاهتَةَ الطِلاءِ..

و وَسائِدَ نَاصِعَةَ النُعَاسِ..

و مَكباً زُجَاجِياً لِلسَجَائِرِ..

و هَاتِفاً مَحمُولاً ذا نَوعِيَةٍ مُتَطَوِرَةٍ..

و رَصيدٌ مَشحُونٌ بِذبذَباتِ الإنترنت..

و كُوبٌ شِتَائِيٌ قَد طَافَ في قَاعِهِ المَادَةُ السِحرِيَةُ التي نُطلِقُ عَلى اسمِهَا الكَابتشِينو..

و أُقدِّمُ لَكَ الوَطنَ العَرَبي على طَبقٍ مِن ذَهبٍ ، بِلا حَربٍ و لا قَتلٍ و لا فِتَنٍ طَائِفِيَةٍ و لا قَومِيَةٍ و لا فِكرِيَةٍ..

يَقُولُ شَابٌ عَرَبي بَائسٌ مِن هَذِهِ الحَيَاةِ ، و مُنصَدِمٌ مِنَ الوَاقِعِ ذُو الرائِحَةِ الكَرِيهَةِ:

ـ لَمْ تَعُد تُعجِبُنِي الحَيَاةُ ، لا أعرِفُ مَا أُرِيدُ ، و مَاذَا تُرِيدُ هَذِهِ الحَيَاةُ مِن شَخصٍ كَسَاؤُهُ البُؤسُ و رِدَاؤُهُ اليأسُ..

صَدِيقُنَا هَذَا عَينَةٌ مِن مَلايينِ العَينَاتِ في وَطَنِنَا المُفتَقِرِ لِصَحوَةِ حُرِيَةٍ و كَرامَةٍ و إنصَافُ هَذِهِ الأجيَالِ التي لا تُناسِبُ عَالَمَكُم سَادَتي مَوالِيدَ الخَمسِين و السِتِين..

فُنذُ ثَلاثِ سَنواتٍ بِلا عَمَلٍ و لا هَدَفٍ و لا مُستَقبَلٍ..

يَقولُ صَدِيقُنَا اليَائِسُ:

ـ مُنذُ ثَلاثِ سنَواتٍ و أنَا على هَذِهِ الحَالَةِ ، مُنطَوِيٌ في غُرفَةٍ لوَحدِي في مَنزِلِ العَائِلَةِ ، النَهَارُ بِالنِسبَةِ لِي سُباتاً ، و الليلُ مَعَاشاً ، أقتَاتُ على مَوَاقِعِ التَوَاصُلِ الاجتِمَاعِيَةِ ، و لا شَيءَ لِي سِوى التَنظِيرِ فَقَط و السَبِ و الشَتمِ و الإيقَاعِ بينَ رُوادِ هَذِهِ المَوَاقِعِ العَفِنَةِ ، أدخُلُ كُلَ لَيلَةٍ إلى هَذَا الكوكَبِ الإلكتَرُونِي بِحِساباتٍ وَهمِيَةٍ

لأزرَعَ الفِتنَةَ بينَ أعضَاءِ الجُروبَاتِ و إثَارَةِ الحُروبِ بينَ أبناءِ الوحدَةِ الإلكترونِيَةِ..

. و إذَا سألتَنِي لِمَاذا هَذا الضَياعُ !؟..

. سأقولُ لَكَ كونَكَ مُهتَمٌ بِالمَوضوعِ .. بَسَبَبِ موقفٍ رُبمَا يَحدُثُ مَع كَثِيرٍ مِن شُبَانِنَا العَرَبِ ، و لَعَلَّ هَذَا الشَيءَ يَحدُثُ كُلَّ يَومٍ وكُلَّ سَاعَةٍ وكُلَّ لَحظَةٍ..

كَانَت أُمِي المِسكِينَةُ تَنتَظِرُ قُدومِي ذَاتَ نَجَاحٍ..

و قَد وَضَعت يَدَهَا على خَدِهَا و هِيَ تُراقِبُ المَارَةَ لَعَلها تَرى موكِبَ الفَرَحِ الذِي يَحلني على سياراتِ الأحبَةِ و الأصدِقَاءِ ، و بِجَانِبِ نَافِذَةِ التَرقُبِ طَبَقٌ وَاسِعٌ غَامِقٌ مِن الشُوكولا مَجبُولٌ بِالورودِ و الأرُز.

لِمَن هذهِ الفَخَامَةُ يَا تُرى ! .. و لِمَن هذَا الاستقبَالُ يا سَادة ! ،

إنَهُ يَومُ تَخَرُجِي مِن كُلِيَةِ الهَندَسَةِ المَعلوماتِيَةِ..

لَقَد حَصَلتُ على أعلى مستَوى في الجَامِعَةِ..

حَطّمتُ المُستَحِيلَ في صِنَاعَةِ المُعجِزاتِ..

أرَدتُ لأهلِي عِزاً و فَخراً لِفَردٍ عَضَلاتِهم أمَامَ النَاسِ التِي كَانَت تستحقِرُهُم ، و لأنَكَ في مُجتَمَعٍ وَهبَهُ اللهُ مِيزَةَ الشَرشَرَةِ و الهَمزِ و اللمزِ و تَحطِيمِ المَعنوِياتِ و تَشتِيتِ الطُمُوحَاتِ ، لا بُدَ لَكَ أن تُقَاتِلَ..

كُنتُ دَائِماً أؤمِنُ بِالنِهَايَاتِ .. تِلكَ النِهَايَاتُ السَاحِقَةُ .. في مَعرَكَةٍ : إمَا أنْ تَكونَ أو لا تَكونَ..

بِدَعوَةِ أمٍ و دَعمِ مَادِيٍ مِن أبٍ أفنَى حَيَاتَهُ في طِلاءِ المنَازِلِ و تَجمِيلِ جُدرانِ مَن بانت رَائِحتُهُ و فَاضَت بِمَالِ الوَطَنِ حِسَابَاتُهُ..

صَنَعَتُ مِن المُستَحِيلِ دُستُوراً للأجيالِ..

حَتى ينهَجوا نَهجَ السائِرينَ إلى المُستَقبَلِ ، و يُخرِسَ أفواهَ الحَاقِدِينَ و الحَاسِدِينَ ،كَانوا و لا زَالوا أبي و أُمي هُم هَفَقِي و رُكنِي و سَنَدِي ، فَأخذتُ على نَفسِي عَهداً أن أُعِيدَ لَهُم هَيبَتَهُم و أن أكونَ لهُم خَيرَ ابنٍ بارٍ لمَا تَبقَى مِن أعمَارِهم..

سَهِرتُ اللياَلي .. ذُقتُ مِنَ الذُلِ شَطرَاً مِنَ العُسرِ .. و مِنَ الجُوعِ سَوطَاً مِنَ الكِبرِياءِ..

إِنَهَا النَفسُ تُرِيدُكَ أن تَخرُجَ و تَنعُمَ و تُخطِئَ..

و لكِن اجتَهدتُ على أن أصبِرَ و أركُنُ إلى مُستقبَلِي و سُمعَةِ أهلِي..

لم أُضِعِ الوقتَ يوماً..

و لم أَضع مَعَ مَن أرَاد أن يُشتِتَ حُلمَهُ و حَياتَهُ..

الجُوعُ و القَهرُ و سُخرِيَةُ الناسِ مِن حولِنَا لم تَهُنِي أبدًا ، فَلقد كُنتُ أسمعُ السُخرِياتِ مِنَ الحَاقِدِينَ و الحَاسِدِينَ و لا تَهتَزُ في دَاخِلي لَهُم و لو بِشَعرةٍ ، كأن يَلمِزونَكَ بِقولِهِم :

أي شُو بِدو يِطلع منِو هَادا..

أبوه دَهّان و أُمهُ أُمِّيّة..

كَان و لا زَالَ وَالدِي شَرِيفاً يَأكلُ مِن مَا جَنتهُ يُمنَاهُ ، و كُنتُ أفتَخِرُ بِهِ دَائِماً لأنَ شَجَاعَتَهُ و صَبرَهُ و تَحُلمَهُ

يُعجِبونَني ، لا أذكُرُ يَوماً مِنَ الأيامِ أنَنِي خَرَجتُ مِنَ المَنزِلِ إلا و قَبّلتُ يَدَاهُ .. صَدقَنِي أنَنَي أُحِبُهُ جِداً و أُشفِقُ عَليهِ..

كُنتُ في العُطَلِ المَدرَسِيةِ و الجَامِعِيَةِ ، أرتَدِي مَلابِسَ العَمَلِ لِأعِينَهُ ، وكَانَ يَقولُ لِي دَائِماً:

- ربي يَخلِيلي إياكَ يَا أبنِي ، و يَطول بِعمري و أفرح فِيكَ ، و يَقدرنِي على إعانتَكَ..

كَنتُ أبكِي في دَاخِلي ، كأنهَا جُروحٌ قَدِيمَةٌ و تَتَفتَحُ مِن جَدِيدٍ ، فَكُنتُ أقُولُ لَهُ:

- وُجودك في حَياتِنَا يا أبَتِي جَنّةٌ و نِعمَةٌ يَصعُبُ عَلينَا إحصَاءُ مِيزَاتِهَا و مَنَاقِبِهَا..

أمَا تِلكَ المَرأةُ التِي صَبَرَت و عَانَت الفَقرَ و العوَزَ و قِلةَ الحِيلَةِ ، كَانت أماً حَنُونَةً لِدَرَجةِ أنّهَا مِن أهلِ البرَكَةِ..

صَامِتةً راضِيَةً صَابِرةً عَابِدَةً..

لا تَفُتُهَا صَلاةٌ مَفروضَةٌ و لا سُنّةٌ مُؤكَدَةٌ..

حَتى فَرِحَت بِنجَاحِي .. و دَوّت زَغَارِيدُها في الحيِّ و ضواحِيهِ مِن أحيَاءٍ مجَاوِرَةٍ ، غَنّت مَعَ المُغنِينَ ، و صَفقَت مَعَ المُصفقِين و بَكَت فَرحاً ، كَانَت أجمَلُ اللحظَاتِ..

رَأيتُهُم في ذَلكَ اليومِ أشدَّ النَاسِ تَوهُجاً و أجمَلَهُم بَرِيقاً ، لَمْ افرح بِقدرِ مَا فَرِحتُ لِفَرَحِهِمَا ، و لكَأنَهُ

حُلمٌ و لكأنَهُ عُرسٌ ، إنَهُ عُرسُ النجَاحِ و الجِدِ و المُثَابرَةِ كَانَ النَصُ القُرآنِي نُصبَ عَيناي:

إنَ الله لا يُضيّعُ أجرَ مَن أحسَنَ عَمَلاً..

لَكن على أرضِ الوَاقعِ لَيسَ لنَا نَصيبٌ ، لِأنَ الوَطَنَ عِبارَةٌ عَن أملاكٍ خَاصَةٍ لِعصابَةٍ تَدّعِي أَنهَا آلِهَةُ الوَطَنِ..

تَخَيل بِأنَ المِنحَةَ التِي حَصَلتُ عَلِيهَا لَأُكمِلَ بهَا دِراسَتِي خَارِجَ الوَطَنِ قَدْ سُلِبَت مِني قَهراً و عِدواناً و ذَهبَت لأحدِ أبنَاءِ البُطونِ المُنتَفِخَةِ بِسَرِقاتِ الوَطَنِ..

قَالت لي جَارَتِي:

- يا بُني يلي مَا عِندو حظ لا يتعَب و لا يشقى..

القَضِيةِ لَيسَت حَظاً و إنمَا تَسلُطاً ، لا وَظائِفَ قَبِلَتنَا و لا بِعثاتٍ اكتسبنَا ، إنَهُ الرُوتِينُ في الوَطَنِ و الدَورانُ في حَلَقَةٍ مُفرَغَةٍ .. أنتَ و الوَطَنُ فيهِما .. في مَحلِ خَبرِ كَانَ .

نِنزَاع ،

إنَهُ المَوتُ أيُهَا الوَطنُ ،

تُرابَكَ..

و سَمَاؤكَ..

و هَواؤكَ..

وكُلُ مَا لا يُقَالُ..

وكُلُ مَا قَد قِيل..

لا نَعلمُ مَا الذِي مَات..

أنَحنُ .. أم نَحنُ .. أم نَحنُ .. أمَ أنتَ أيهَا الوَطنُ..

و ربُ الوَطنِ نَحنُ مُجرِمُونَ ذوو طِرازٍ عَالِ المِستَوى بِحَقِ أوطَانِنَا ، أعمَت قُلوبُنَا المَصَالحُ الشَخصِيَة ، و حَشوَ

الخَزَائِنِ ، و امتِصَاصِ تِلكَ البُقعَةِ التِي أكلنَاهَا لَحماً و رَمِينَاهَا عَظماً..

تَقُولُ المُواطِنَةُ العَجُوزُ ذَاتِ التِسعِينَ سَنَةً:

ـ لمْ أخرُج مِن هَذِهِ البِلادِ مُذ أن ولدَتنِي أُمِي..

لا أعلمُ مَا الذِي يَجُولُ في خَاطِرِ هَذِهِ المُسِنَةِ ، لَقَد حَضَرت السِنِينُ البَالِيَةُ التِي شَهِدَتهَا الانقِلاباتُ السِياسِيَةُ و العَسكَرِيَةُ ، و رَأت بِأمِ عَينِيهَا كَيفَ هُوَ المَوتُ و سَكَراته عِندمَا تَدُقُ طُبولُ الحَربِ ، و رَاحت السَيدَةُ العَجوزُ تَسترَسِلُ بِحَدِيثِهَا:

ـ أنَا مَا بِدي أمُوت غَير هُون بِالبَلد..

حَتى أُمنِياتُ نِزاعِ الموتِ لَمْ تَخلو مِن أحَادِيثِهَا ، هَل هَذِهِ العَجوزُ فَهِمَت نَبضَ الوَطنِ أكثَرَ مِن حُكّامِهَا الذِين تَوالوا على تَمزِيقِهِ و تَشوِيهِ أراضِيهِ.. !

قَطَعَت ثَرثَرَةَ الموتِ و قَالت:

. أُرِيدُ أن أُعِدَ لَكُم كُوباً مِن النَعنَاعِ ، يا ابنِي هَذَا النَعنَاعُ مِن خَيراتِ هَذِهِ الأرضِ ، الحَكِي لَيس كَمَن ذَاقَ و شَرِبَ..

بِيَدِين مُرتَجِفَتَينِ ، و جِلدٍ مُترَهِلٍ ، و شَعرٍ أغَارَ عَلَيهِ نَصاعُ الشَيبِ ، و شَفتَان صَيفِيتَان ، و لِباسٍ أبلتَهُ الذاكِرَةُ..

إنّهَا ذَاكِرَةٌ لا تَعرِفُ الكَذِبَ..

ذَاكِرَةٌ لا يَشُبُهَا ظَنٌ و لا تَكهُنٌ..

ذاكِرَةٌ أنقَى مِن لونِ الدَم..

إنّهَا الذاكِرَةُ التي صَنعَهَا المَارّونَ على هَذِهِ الأرض..

و لَكِن هُنَاكَ لُغزٌ رَاحَ ضَحِيتَهُ مَن حَرَّفَ التَارِيخَ ، لَيسَ لِسَبَبٍ شَخصِي ، بَل لمَطَامِعِ الظَلَمَةِ ، لُغزٌ على هَيبَةِ سؤَالٍ ، مَفَادَهُ:

أينَ هُمُ الآن !؟..

أيتُهَا الرُوحُ المَبحُوحَةُ بِالغِنَاءِ..

لا تَصرَخِي بِنِدَاءِ الرَاحِلِينَ..

فَقَد أفنَتهُمُ اللحُودُ و أكلَهُم الدُودُ..

قَاطَعَتِ العَجوزُ سِلسلَةَ أشبَاحِ الغَابِرِينَ قَائِلَةً:

- أنا بِحب صَوت فَيروز ، حَابب حط هَالكَاسِيت في المُسَجِل ، تَسمعوا مَعِي لبين مَا جَهز النعَنَع !؟..

وَضَعت ذَلِكَ الشَرِيطَ في مَوارِبِ المُسَجِلِ ، و رَفَعت الصَوتَ قَلِيلاً ليَصِلَ نَدى اللحَنِ مَاراً بِنَقَائِهِ إلى المَطبخِ..

إنّهَا سَيدَةُ اللحَنِ..

قِدِّيسَةُ وَتَرِ الصَبَاحِ..

نُوتَةُ مَا قَبلَ الشُروقِ..

جُرعَةُ مَا تَبقَى مِنَ الناي..

صَهِيلُ البَنَفسَجِ و دَبِيبُ اليَاسَمِينِ..

تَرنِيمَةُ صَدَى الشَمْسِ و انكِسارِ المَاءِ..

تَعوِيذَةُ المِحرابِ قَبلَ صُعُودِ المَسِيحِ..

تَشرِدُقُ أعمِدَةِ المَاءِ قَبلَ الفِراقِ و بَعدَهُ..

إنّهَا السَيدَةُ فَيروز.

ارتقَى صوتُ الضَبابِ على نَدى السَمعِ صَادِحاً:

مَا في حَدى..

مَا فِي حَدى..

مَا في حَدى .. لا تِندَهِي .. مَا في حدَى

عَتم و طَرِيق .. و طَير طَايِر عالهَدى..

بَابون مَسكَر .. و العِشق غَطَى الدراج..

شُو ئولكون !! .. شُو ئولكون !! .. صَاروا صَدى..

و مَا في حَدى..

مَع مِين بَدك تَرجَعي بَعتمِ الطَرِيق.. !!

لا شَعَال نَارون .. و لا عِندك رفيئ .. مَع مِين.. !!

يا رَيت ضَوينَا الئنديل العَتِيق..

بالئنظَرة يمكِن حَدى كَان اهتَدى..

يَا قَلب آخرِتا معكَ تَعبتنِي .. شُوباكَ دَخلكَ صرت هيكَ و شُو بِني. !!

خَرَجتِ العَجُوزُ تَحِلُ إبرِيقَ النَعنَاعِ النُحَاسِي و أكوَاباً زُجَاجِيَةً مِن ذَاتِ العَهدِ الكَلاسِيكِي ، و رَعشَةُ يَدِيهَا كَرعَشَةِ هَذَا الوَطنِ .. و هِيَ تَتبَعُ كَلِمَاتِ سَيدَةِ السَمَاءِ فَيروز و تُغَنِي مَعَهَا :

ـ مَا في حَدَى .. أي و الله يا أمِي مَا في حَدَى..

جَلسَت على الكَنَبِ المُنَجَدِ عِدَةَ مَراتٍ ، في ضِيافَةِ أحدِ الجُدرانِ و بِطِلائِهَا الأخضَرِ تَتَمَدُ عِدَةُ صُوَرٍ رَمَادِيَةُ التَعتِيقِ ، و الذِي يلفِتُ الانتِباهَ بِأنَ الصُوَرَ مَوثُوقَةٌ بِالأشرِطَةِ السَوداءِ مِما يَدُلُ على رَحِيلِ أصحَابِهَا و على رَأسِهِم زَوجُهَا..

لم أحكِم تَطفُلِي ، لِأتجَرأ بِسؤالٍ وَاحِدٍ قد نَدِمتُ عَلَيهِ آنِفاً :

ـ منَ هؤلاءِ الأشخَاصُ الذِينُ احتَلوا الجُدرانَ !؟..

بَينَما كَانَت تَستَمِعُ لسؤالِي و تُفرِغُ شَرابَ النعنَاعِ السَاخِنِ بِالأكوابِ ، انحَدَرت دُمُوعُهاكَحبّاتِ اللؤلؤِ على خَدّيهَا المُتَورِمانِ بِالجُعدَةِ ، و شَهَقَت شَهقَةً بِغَيرِ عَمدٍ ، مِن بَعدِ أن أخذَت نَفَساً عَمِيقاً قَائِلَةً:

ـ عَامودُ الدارِ أبو جُول مَاتَ مُنذُ سَبعَةَ عَشرَ سَنَة..

ـ جُول طَيارٌ عَسكَريٌ بِرُتبَةِ نَقِيبٍ ، استَشهَدَ بِحَربِ تِشرِين..

. فَادِي دَبت فيهِ الحَمِيَةُ و التَحَقَ بِالفِدائِيينَ الفِلسطِينيينَ بِلبنَان و استَشهَدَ في أولِ اجتِياحٍ إسرائِيلي لِلبُنَان..

. أنطُوان اعتقَلوهُ مَعَ شَباب بِحَلب في بِدَايات تأسِيسِ الحِزبِ الشِيوعِي ، و للآن مُو مِبين لا هُو و لا أصحَابُ ، و هالحكِي صَرلو مِن خَمسة و عِشرِين سنة..

. أمَا حَنَا مَات بسَرطَان الدَم من عَشر سَنوات..

و بَعد اسمو هالرَب مَا بينسى حَدى و على قولات السِت فَيروز:

مَا فِي حَدى..

لم يَصمت تَطفُلي ، رُحتُ طَارِحاً عَلَيهَا السُؤالَ الثانِي قَائِلاً:

و مَن بَقِي لكَ !؟..

عَجوزٌ في قَلبِهَا طُهرٌ كَطُهرِ الوَطنْ ، و في رُوحِهَا مَاضٍ مُتَشَقِقٌ بِالدَمَارِ ، لَمْ تَنهَار و لَمْ يُؤثِر مِلحُ الوَجَعِ على إيمانِهَا الصَادِقِ ، رَدّت على سُؤالِي:

ضَلِلي هَالوَطن يا أمِي..

أيُ إيمَان هَذَا الذِي لم يَجعل مِن هَذا الصَرحِ يَحِلُ حَقَائِبَ السَفرِ و يمضي بحثاً عن وَطنٍ بَدِيلٍ.. !

إنَهُ ذَلِكَ اليَقِينُ الذِي يُلاحِقُكَ دَوماً و أنتَ خَارِجِ حُدودِ الوَطنِ ، تِلكَ السِياطُ الجَامِحَةُ التِي تَجلِدُكَ شَوقاً للتُرابِ و للسَمَاءِ و لِلهَوَاءِ ، أتُرِيدُ أن تَهرِبَ !؟..

لَن تَجِدَ أحنُ عليكَ مِنَ رَائِحَةِ وَطنِكَ.

مُشتَاق ،

بِدك ترجَع !؟ . جَهز حالك..

وَصلَتِ الطَائِرَةُ في تَمامِ السَاعَةِ:

09 : 30 صَباحاً بِتوقِيتِ العَاصِمَةِ دِمَشق..

أعِزَائِي المُسَافِرين أهلاً و سَهلاً بِكُم عَبرَ خُطوطِنَا الجَوِيةِ السُورِيَةِ ، و نَتَمنَى لَكُم إقَامَةً سَعِيدَةً في الجُمهُورِيَةِ العَربِيَةِ السُورِيَة..

الرجَاء المُكُوثُ في أمَاكِنِكُم حَتى تَهبِطَ الطَائِرَةُ بِخَيرٍ و سَلَامَةٍ..

أنظُرُ إلى دِمَشقَ مِنَ التابوتِ المُطِلِ لِلهَواءِ الطَلقِ..

شَيءٌ في الجَوفِ هَزَ الوَجدَ في أحشَائِي..

ياسَمِينَةٌ..

أنتِ يا شَامُ..

لم تتَغَير جِهَةُ العِشقِ فِيكِ..

كُلُ أشرِعَةِ الهَوى تَحُجُ إلى مَرفَأكِ..

هَل عَرفتِ ذاكَ الفتَى الذِي شَاطَرتيهِ طُفولَتَهُ !؟..

إنَهُ أنَا يا شَام ، أتيتُكِ حَافِيَ الدَمعِ مِن كُلِ ثُغورِ المنَافي..

هَل تَقبَلي تَوبَتِي و تَغفِرِي زَلَتِي و تُزِيلي ضَبابَ عُقوقي !؟

أرتَجِفُ أنَا مِن شِتَاءِ الاغتِرابِ يا شَامُ ، عَمِّدِيني بِبَرَدَى و دَثِّرِي رَعشَةَ الوَجعِ بِالياسَمِينِ ، و افرُشِي مِحَارِبَ الأزِقَةِ لِلعَاشِقِينَ .. لِلقَادِمِينَ .. لِلعَائِدِينَ .. لِلتَائِهِينَ..

عِشرونَ عاماً خَارِجَ حُدودِكِ أتَلوى يُتْماً بَعدَ يُتمٍ..

يا شَامُ، الذَنبُ لَيسَ بِذنبي..

إنَهُ الظُلمُ .. إنَهُ الضَبابُ .. إنَهُ السَوادُ..

قَد خَرجتُ مِن حَرَمِكَ مُتخَفِياً..

مُعَافاً سَلِيماً لاهِثاً جَارِياً خَلفَ حُطَامِ الغَربِ..

وعدتُ إلِيكِ..

و يا لَيتَني لم أعُد بِهَذِهِ الحَالةِ يا شَامْ..

شَخصَ البَصَر ،

و خَمَدَتِ النَبَضاتُ ،

و تَجَمَدَتِ الدِماءُ في العُروقِ ،

أهدِنِي قَبراً يا شَامُ حَتى أُريحَ تَعبَ قَلبِي ،

أُحفُري لَحداً يا شَامُ للضَائِعينَ و النَادِمِينَ و الغَافِلين ،

جَسداً بِلا رُوحٍ ، جَسَداً مُسَجّى في تَابوتٍ غَربِيٍ ، و بِأكفانٍ غَربيَةٍ ، و أحلامٍ قَد طَوتِ اغتِرابِهَا ، و بِأمَانِي لَن و لَن تَعُود..

سُحِبَ النَعشُ مِن قِسمِ الحَقَائِبِ..

أصوَاتٌ دِمشقِيَةٌ تَقولُ:

آجِروا .. آجِروا .. آجِروا يا شَباب..

لُفَ التَابوتُ بِعَلَمِ بِلادِي..

لُفَ الجَسَدُ بِوتَدِ الياسَمِينِ..

لُفتِ الدَعَواتُ بِشُوخِ قَاسَيونَ..

عُشرونَ عَاماً و أنَا أحفرُ ظِلَكَ في الكُتُبِ..

عُشرونَ عَاماً و أنَا أُحدِّثُ وحدَتِي عَن هَوائِكَ..

عُشرونَ عَاماً يا شَام..

و أنَا أُفنِي الحِبرَ في عُروقِ الشوَقِ..

أطنَانٌ مُطَنَنَةٌ مِنَ الأوراقِ غَنَّتَ لَكِ .. كَمَا كَانت تغني لَكَ فَيروز:

رُدَني إلى بِلادي..

مَع نسَائِمِ الغَوادِي..

مَع شُعاعاتٍ تَغاوت..

عِندَ شَاطِئٍ و وَادي..

رُدَنِي .. رُدَنِي .. رُدَنِي..

إلى بِلادي..

و هَا أنَا اليَومَ بَعدَ أن حَلّقَت رُوحُ الهُيامِ التي مَاتت في سَبِيلِكِ عِشقاً ، أعَودُ إلِيكِ لِأشبعَ نَوماً في تُرابِكِ..

حُمِلَ النَعشُ على الأكتافِ..

أهدَتنَا الحُريةُ اِغتِراباً ،

و أهدَانَا الوَطنُ عَلَماً ،

على بَوابَةِ مَطَارِ دِمشقَ الدُولي ، جَمعٌ غَفيرٌ مِنَ الأحبابِ و الأصحابِ ، منَ القُرَّاءِ و المُتصفِحِينَ ، مِنَ المُعجَبِينَ و المُعارِضِينَ..

جَاؤوا لِحملِ نَعشِي..

جَاؤوا لإراحَةِ وَجَعي..

هَا هِيَ دِمشقُ تُودِعُ مَجنُوناً في هَواهَا..

هَا هِيَ الشَامُ لَبِسَت صَوتَ العَوِيلِ..

هَا هُم أُخوةُ الخُبزِ و الياسَمِينِ كَستَهُمُ هَيبَةُ الموتِ صَمتاً..

و بِرعَايَةِ صَارخِ الموتِ..

تَنتَظِرُ سِيارَةُ الحِدادِ بِمَكبِراتِهَا..

بِحُزنِهَا..

بِعَوِيلِهَا..

بِصَخبِهَا..

بِعزائِهَا..

تَصرخُ مُعلِنَةً استِقبالَ صَبابَةِ شَوقي قَائِلَةً:

سُبحَانَ الحَي الذِي لا يَموت..

سُبحَان الحي الذِي لا يَموت..

إنَا للهِ و إنَّا إلِيهِ رَاجِعون..

تَرحَّموا على المَرحُوم الكَاتِب و الرِوائِي السُورِي ،

ابن سُورِيا : زُهَير أبو سَعَد ..

أتممتُ رِواية:

وَطن سِكسِي

في بَلَدِ الحُرِية و الدِيمُقرَاطِية : النَمسا ، في عَاصِمَةِ البِيانو و الكَنجَة : فيينا ،

في مَنزِلِي الأخضر في الحَي السَابع.

السَاعة : 00 : 03 ، قَبلَ غُروبِ الشَوق.

مِن تَارِيخ : 1 / 7 / 2017.